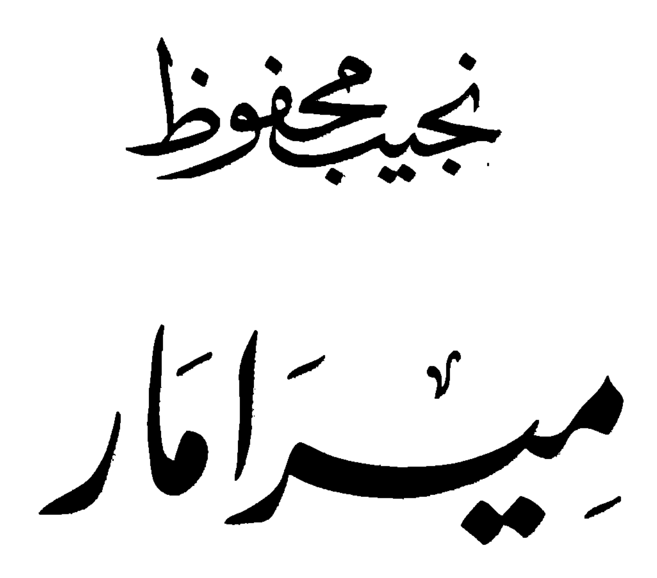
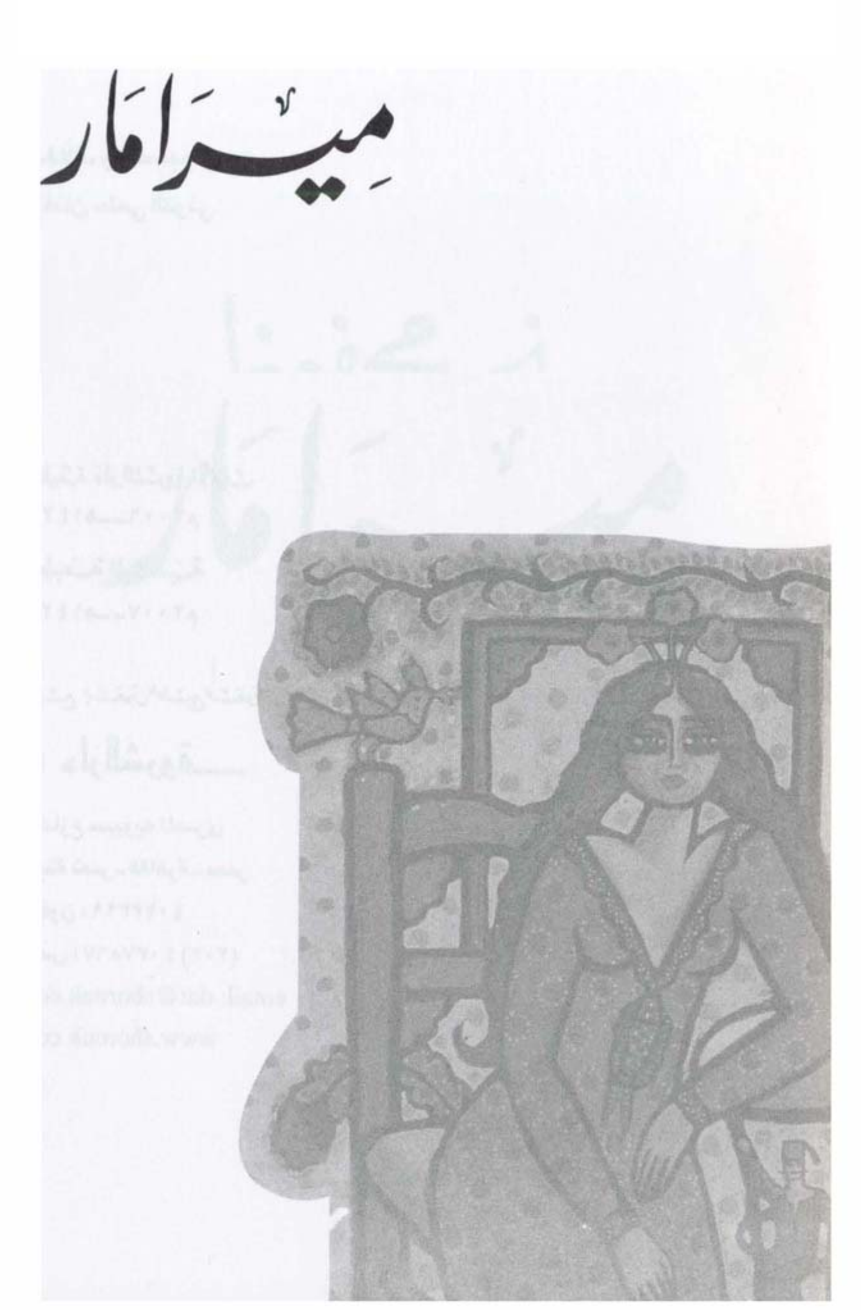
نجيب محفوظ

مِيرامَار



دار الشروق

مِيرَامَار



الغلاف والتصميم

للفنان حلمى التونى

طبعة دار الشروق الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

الطبعة الثانية

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

٨ شارع سيبويه المصرى

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩

فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

email: dar@shorouk.com

www.shorouk.com

المحتويـــات

١

عامـــر وجـــدى

الإسكندرية أخيراً .

الإسكندرية قطر الندى ، نفثة السحابة البيضاء ، مهبط الشعاع المغسول بماء السماء ، وقلب الذكريات المبللة بالشهد والدموع .



العمارة الضخمة الشاهقة تطالعك كوجه قديم ، يستقر فى ذاكرتك فأنت تعرفه ولكنه ينظر إلى لا شىء فى لا مبالاة فلا يعرفك . كلحت الجدران المقشرة من طول ما استكنت بها الرطوبة . وأطلت بجماع بنيانها على اللسان المغروس فى البحر الأبيض ، يجلل جنباته النخيل وأشجار البلح ، ثم يمتد طرف قصى حيث تفرقع فى المواسم بنادق الصيد . والهواء المنعش القوى يكاد يقوض قامتى النحيلة المقوسة ، ولا مقاومة جدية كالأيام الخالية .

ماريانا ، عزيزتى ماريانا ، أرجو أن تكونى بمعقلك التاريخى ، كالظن وكالمأمول ، وإلا فعلىّ وعلى دنياى السلام . لم يبق إلا القليل ، والدنيا تتكرر فى صورة غريبة للعين الكليلة المظللة بحاجب أبيض منجرد الشعر .

ها أنا أرجع إليك أخيرا يا إسكندرية .

***

ضغطت على جرس الشقة بالدور الرابع. فتحت شراعة الباب. فتحت شراعة الباب عن وجه ماريانا. تغيرت كثيراً يا عزيزتى. ولم تعرفنى فى الطرقة المظلمة. أما بشرتها البيضاء الناصعة وشعرها الذهبى فقد توهجا تحت ضوء ينتشر من نافذة بالداخل.

ـ بنسيون ميرامار؟

ـ نعم يا فندم.

ـ أريد حجرة خالية.

الباب فتح. استقبلنى تمثال العذراء البرونزى. ثمة رائحة ما لعلى أفتقدها أحيانًا. وقفنا نتبادل النظر. طويلة رشيقة، الشعر ذهبى، والصحة لا بأس بها، ولكن بأعلى الظهر أحيدداب، والشعر مصبوغ حتمًا، واليد المعروقة وتجاعيد زاويتى الفم تشى بالعجز والكبر. إنك يا عزيزتى فى الخامسة والستين رغم أن الروعة لم تسحب منك جميع أذيالها. ولكن هل تتذكريننى؟

نظرت باهتمام تجارى بادئ الأمر، ودققت النظر، ثم اختلجت العينان الزرقاوان. ها أنت تتذكرين، وها أنا أسترد وجودى الضائع.

ـ أوه.. أنت!

ـ مدام!

تصافحنا بحرارة، غلبها الانفعال فقهقهت ضاحكة. كنساء الأنفوشى قهقهت. وأطاحت بالوقار بضربة واحدة.

ـ يا خبر أبيض، عامر بك، أستاذ عامر، ها.. ها..

جلسنا على كنبة الأبنوس تحت العذراء وشبحانا يتخايلان فى زجاج صوان المكتب القائم للزينة.

نظرت فيما حولى وقلت:

ـ مدخل البنسيون هو هو لم يتغير:

فقالت محتجة ، ملوحة بيدها بفخار :

ـ بل تجدد وطلى مرات ، وعندك أشياء جديدة كالنجفة والبارفان والراديو . .

ـ إنى سعيد يا مريانا ، الشكر لله على أنك فى صحة جيدة . .

ـ وأنت أيضا يا مسيو عامر ، ألمس الخشب . .

ـ عندى المصران الغليظ والبروستاتا ، نحمده على أى حال . .

ـ أتجىء بعد زوال الصيف؟

قلت باهتمام :

ـ بل جئت للإقامة ، متى تلاقينا آخر مرة؟

ـ منذ . . منذ . . أقلت للإقامة؟

ـ نعم يا عزيزتى ، رأيتك آخر مرة منذ حوالى عشرين عاما . .

ـ واختفيت طيلة ذلك العمر!

ـ العمل ، والهموم . .

ـ أراهن على أنك زرت الإسكندرية مرات ومرات فى تلك الأعوام . .

ـ أحيانا ، ولكن وطأة العمل كانت شديدة ، وأنت أدرى بالصحافة . .

ـ وأعرف أيضا جحود الرجال . .

ـ ماريانا يا عزيزة ، أنت أنت الإسكندرية . .

ـ تزوجت طبعا . .

ـ كلا بعد!

تساءلت مقهقهة :

ـ ومتى تتم النية وتقدم؟

قلت بنبرة لم تخل من امتعاض :

ـ لا زواج، لا أبناء، اعتزلت العمل، انتهيت يا ماريانا . .

شجعتنى بحركة من يدها فواصلت قائلا :

ـ عند ذاك نادتنى الإسكندرية، مسقط رأسى، ولما لم يكن لى فيها من قريب حى فقدقصدت الصديق الباقى لى فى دنياى .

ـ جميل أن يجد الإنسان صديقا يقاسمه وحدته .

ـ أتذكرين أيام زمان؟

قالت بصوت مأساوى :

ـ ذهبت بكل جميل .

ثم فى شبه غمغمة :

ـ ولكن علينا أن نعيش . .

وجاء وقت الحساب والمساومة . قالت : إنه لم يعد لها من مورد إلا البنسيون، ولذلك فهى ترحب بنزلاء فصل الشتاء ولو كانوا من الطلبة المزعجين، وفى سبيل ذلك تستعين بالسماسرة وبعض خدم الفنادق . رددت ذلك بحزن عزيز قوم ذل . واختارت لى الحجرة رقم ٦ فى الجناح البعيد عن البحر . واتفقنا على أجرة معقولة تصلح لشهور العام عدا فصل الصيف، على أن يكون لى حق الاستمرار فى الإقامة صيفا إذا دفعت أجرة المصيفين . تم الاتفاق على كل شىء بما فيه الفطور الإجبارى، وأثبتت المدام أنها تستطيع فى الوقت المناسب أن تستنقذ قلبها من الذكريات لتحسن المساومة والتدبير . وسألتنى عن حقائبى فأجبت بأنها فى أمانات المحطة . فقالت ضاحكة :

ـ لم تكن متأكدا من وجود ماريانا .

ثم واصلت بحماس :

ـ لتكن إقامة دائمة .

فنظرت إلى يدى التى ذكرتنى بيد مومياء فى المتحف المصرى .

* * *

لا تقل حجرتى فى شىء عن الحجرات المطلة على البحر . مستوفية لحاجتها من الأثاث والمقاعد المريحة ذات الطابع القديم . ولتبق الكتب فى صندوقها إلا ما ندر مما قد أراجعه فيمكن وضعه فوق الترابيزة أو التسريحة . لا يعيبها شىء إلا أن جوها يسبح فى مغيب دائم لأنها تطل على منور كبير يتسلق على جدرانه سلم الخدم حيث تهر القطط ويتناجى العاملون . وزرت الحجرات كلها . الوردية والبنفسجية والسماوية وكانت جميعها خالية . فى كل أقمت صيفا أو أكثر فى زمن مضى . ورغم اختفاء المرايا القديمة والسجاجيد الفاخرة والقناديل المفضضة والفنايير البلورية فما زالت مسحة أرستقراطية باهتة تعلق بالجدران المورقة والأسقف العالية الموشاة بصور الملائكة .

قالت وهى تتنهد وقد لمحت لأول مرة طاقم أسنانها :

ـ كان بنسيون السادة!

فقلت مواسيا :

ـ سبحان من له الدوام .

فعادت تقول وهى تلوى بوزها :

ـ أكثر النزلاء شتاء من الطلبة ، وأما فى الصيف فأستقبل كل من هب ودب .

* * *

ـ عامر بك ، كن شفيعى عند دولة الباشا .

وقلت للباشا :

ـ يا دولة الزعيم ، ليس الرجل ذا كفاءة ممتازة ولكنه فقد ابنه فى الجهاد وهو جدير لذلك بأن يرشح عن الدائرة .

وافق على اقتراحى أسكنه الله أعز مكان فى جنته. كان يحبنى ويتابع مقالاتى باهتمام صادق. ومرة قال لى:

ـ أنت كلب الأمة الخافك.

كان رحمه الله ينطق القاف كافا. وسمع بها بعض الزملاء القدامى من رجال الحزب الوطنى فكانوا كلما رأونى صاح صائحهم: «أهلا بكلب الأمة».

لكنها كانت أيام المجد والجهاد والبطولة.

كان عامر وجدى شخصا فريدا، له فى الرجاء جانب يرده الأصدقاء، وفى الخوف جانب يتجنبه الأعداء.

* * *

فى الحجرة أتذكر أو أقرأ أو أستسلم للنعاس. وفى المدخل مجال سمر مع الراديو وماريانا. وإن شئت تنويعا فى التسلية ففى أسفل العمارة مقهى الميرامار. من البعيد جدا أن أعثر على أحد أعرفه أو يعرفنى، ولا فى التريانون نفسه. ذهب الأصدقاء وذهب زمانهم. وإنى لأعرفك يا إسكندرية الشتاء. تخلين ميادينك وشوارعك مع المغيب فيمرح فيها الهواء والمطر والوحشة، وتعمر حجراتك بالمناجاة والسمر.

* * *

ـ ذلك العجوز الذى يخفى جسده المحنط تحت بدلة سوداء من عهد نوح.

وقال من عينه الزمن الهازل رئيسا للتحرير:

ـ زمن البلاغة ولى، هل عندك عبارة تصلح لراكب طيارة؟!

راكب طيارة! أيها القره جوز المفعم شحما وغباء.. إنما خلق القلم لأصحاب العقول والأذواق لا للمجانين المعربدين من ضحايا الملاهى والحانات.. ولكن قضى علينا طول العمر بالسير فى ركاب زملاء جدد

فى المهنة، لقنوا علمهم فى السيرك ثم اجتاحوا الصحافة ليلعبوا دور البهلوانات.

* * *

جلست على الفوتيل مرتديا الروب، استسلمت ماريانا إلى مسند الكنبة الأبنوس تحت تمثال العذراء، وانبعث من المحطة الأفرنجية موسيقى راقصة. وددت أن أسمع لونا آخر ولكنى تجنبت إزعاجها. استرخت جفونها كمن تحلم وحركت رأسها فى طرب كأيام زمان.

ـ كنا وما زلنا أصدقاء يا عزيزتى.

ـ طول العمر.

ـ لم نتبادل العشق ولا مرة!

ضحكت ضحكة عالية وقالت:

ـ ذوقك بلدى، لا تنكر..

ـ عدا مرة عابرة، هل تذكرين؟

ضحكت طويلا ثم قالت:

ـ نعم جئت مرة بخواجاية فاشترطت عليك أن تكتب فى السجل «عامر وجدى وحرمه».

ـ وسبب آخر أبعدنى عنك، كنت حسناء فاخرة يحتكرك الوجهاء..

تهلل وجهها فى سعادة شاملة، ماريانا، مهم عندى جدا أن يمتد بك العمر بعدى ولو يوما واحد حتى لا أضطر إلى البحث عن مأوى جديد. ماريانا إنك شاهد حى على أن التاريخ ليس وهما، من عهد الإمام إلى اليوم.

* * *

ـ سيدى الأستاذ، أستودعك الله.

رمقنى فى ضجر، وهو يضيق بى كلما رآنى . قلت:

ـ آن لى أن أعتزل

قال وهو يدارى ارتياحه:

ـ خسارة كبيرة ولكننى أرجو لك حياة طيبة.

انتهى كل شىء.

انطوت صفحة تاريخ بلا كلمة وداع ولا حفلة تكريم ولا حتى مقال من عصر الطائرة. أيها الأنذال. أيها اللوطيون ألا كرامة لإنسان عندكم إن لم يكن لاعب كرة؟!

* * *

قلت وأنا أرنو إليها تحت تمثال العذراء:

ـ ولا هيلانة فى زمانها!

ضحكت وقالت:

ـ قبل أن تجىء كنت أجلس وحدى، لا أنتظر أحدًا أعرفه. مهددة دائما بأزمة كلى.

ـ سلامتك، ولكن أين أهلك؟

وهى تتنهد:

ـ هاجر النساء والرجال.

ولوت بوزها المجعد ثم واصلت:

ـ قلت أين أذهب؟ لقد ولدت هنا لم أر أثينا أبدا فى حياتى، ثم إن البنسيونات الصغيرة لن تؤمن على أى حال.

* * *

يعجبنى الصدق فى القول والإخلاص فى العمل وأن تقوم المحبة بين الناس مكان القانون. لا فض فوك. لقد أكرمك الله بتمثالين والموت.

ـ مصر وطنك والإسكندرية ليس كمثلها شىء

عزف الهواء فى الخارج . والظلام يهبط خلسة . قامت فأشعلت من النجفة ثلاثة مصابيح فى أسفلها مثل عنقود العنب . عادت إلى مجلسها وهى تقول :

ـ كنت سيدة ، سيدة بكل معنى الكلمة .

ـ مازلت سيدة يا عزيزتى .

ـ هل تشرب كأيام زمان؟

ـ كأس واحدة عند العشاء ، طعامى خفيف جدا ، وذاك سر حيويتى رغم تقدم العمر .

آه يا مسيو عامر ، تقول : إن الإسكندرية ليس كمثلها شىء؟ كلا لم تعد كما كانت على أيامنا ، الزبالة ترى الآن فى طرقاتها!

قلت بإشفاق :

ـ عزيزتى ، كان لابد أن تعود إلى أهلها .

قالت بحدة :

ـ ولكننا نحن الذين خلقناها .

ـ عزيزتى ماريانا ألا تشربين كأيام زمان؟

ـ كلا ، ولا كأس واحدة ، عندى ضغط من الكلى .

ما أجمل أن نوضع فى متحف جنبا إلى جنب ، ولكن عدينى بألا تموتى قبلى :

ـ مسيو عامر ، قتلت الثورة الأولى زوجى الأول ، أما الثورة الثانية فجردتنى من مالى وأهلى ، ولماذا؟

ـ إنك مستورة والحمد لله ، ونحن أهلك ، والعالم يشهد أمثال هذه الحوادث كل شروق شمس .

ـ يا له من عالم!

ـ ألا نغير المحطة الإفرنجية؟

ـ عدا ليلة أم كلثوم فلا محطة غيرها!

ـ أمرك يا عزيزتى.

ـ خبرنى لماذا يعذب الناس بعضهم البعض، ولماذا يتقدم بنا العمر؟

ضحكت دون أن أنبس.

أجلت البصر فى الجدران المنقوش عليها تاريخها. هاك صورة الكابتن بقبعته العالية وشاربه الغزير فى البدلة العسكرية، زوجها الأول، ولعله حبيبها الأول والأخير، الذى قتل فى ثورة ١٩١٩. فى الجدار المقابل وفوق المكتبة صورة أمها العجوز، كانت مدرسة. على مرمى البصر فى الصالة فيما وراء البارفان صورة الزوج الثانى ملك البطارخ وصاحب قصر الإبراهيمية، أفلس ذات يوم فانتحر.

ـ متى فتحت البنسيون؟

ـ قل متى اضطررت لفتحه من فضلك!

ثم أجابت:

ـ عام ١٩٢٥.

عام محنة وكدر..

* * *

ـ ها أنا شبه سجين فى بيتى وعرائض التأييد تزف إلى الملك.

ـ زيف وكذب يا دولة الزعيم.

ـ حسبت الثورة قد طهرت النفوس من ضعفها.

ـ الجو سليم والحمد لله.. سأسمع دولتكم مقالة الغد.

* * *

راحت تدلك بشرة وجهها بليمونة وهى تقول :

ـ كنت سيدة يا مسيو عامر، أحب الحياة الحلوة والنور والفخامة والأبهة والملابس والصالونات، وكنت أهل على المدعوين كالشمس . .

ـ رأيت ذلك بعينى . .

ـ لكنك لم تر إلا صاحبة البنسيون .

ـ كانت تهل أيضا كالشمس . .

ـ وكان النزلاء من السادة ولكن لم يعزنى ذلك عن تدهورى . .

ـ مازلت سيدة بكل معنى الكلمة .

هزت رأسها ثم سألت :

ـ والأصدقاء القدامى ماذا حل بهم؟

ـ حل بهم المكتوب عليهم .

ـ لماذا لم تتزوج يا مسيو عامر؟

ـ سوء الحظ، ليتنا أنجبنا ذرية .

ـ أوه . . كان كلا الزوجين عاقرا!

يغلب على الظن أنك أنت العاقر، إنه أمر مؤسف إذ إننا لم نوجد إلا لكى ننجب .

* * *

ذلك البيت الكبير الذى تحول مع الأيام إلى فندق، يراه السائر فى خان جعفر كقلعة صغيرة، وحوشه القديم الذى شق فيه طريق إلى خان الخليلى، قد نقش فى قلبى هو وما يكتنفه من بيوت قديمة والكلوب العتيق، صورة تذكارية لنشوة الحب المشبوب المرتطم بخيبة الأمل . العمامة واللحية البيضاء وقسوة الشفتين وهما تلفظان «لا» فتقضى فى تعصب أعمى على الحب الذى هبط إلى الدنيا قبل الأديان بمليون سنة .

ـ مولاى، إنى أنشد القرب منكم على سنة الله ورسوله .

صمت وبيننا فنجال قهوة لم يمس ، فقلت :

ـ إنى صحفى ، ذو مال ، وابن شيخ كان خادما لمسجد سيدى أبى العباس المرسى .

قال :

ـ رحمه الله كان من التقاة المؤمنين .

وقبض على المسبحة ثم استطرد :

ـ يا بنى ، كنت منا ، جاورت الأزهر زمنا .

ذاك التاريخ متى ينسى ! . قال :

ـ ثم طردت من الأزهر ، أنت تذكر . . ؟

ـ مولاى ، ذاك تاريخ قد انقضى ، لأتفه الأسباب كان يحق الطرد ، شاب هزه الشباب فاشترك فى تخت مطرب ذات ليلة ، أو طرح بعض أسئلة ببراءة . .

قال بامتعاض :

ـ قضى عليه قوم عقلاء بتهمة شنيعة .

ـ مولاى منذا يستطيع أن يقضى على إنسان بتهمة كالالحاد ، ولا مطلع على الفؤاد إلا الله؟

ـ يستطيع ذلك من يسترشد بالله .

اللعنة . منذا يزعم أنه عرف الإيمان . قد تجلى الله للأنبياء ونحن أحوج منهم إلى ذاك التجلى . وعندما نتحسس موضعنا فى البيت الكبير المسمى بالعالم فلن يصيبنا إلا الدوار .

* * *

لنحذر الكسل . لا بأس من تجربة المشى فى الصباح المشمس . ما

أحلى أيام الدفء فى البالما والبجعة . ولو وجدت نفسك وحيدا بين أسر تعمر بالأجيال . الأب يطالع جريدة والأم تطرز رقعة والأبناء يلعبون . لو يخترع المخترعون للمعتزلين جهازا يبادلهم الحديث والسمر، أو شخصا ألكترونيا يلاعبهم النرد، أو يركب لهم عينا جديدة تولع مرة أخرى ببنات الأرض وألوان السماء .

وقد عشنا دهرا طويلا حافلا بالأحداث والأفكار، نوينا أكثر من مرة أن نسجله فى مذكرات ـ كما فعل الصديق القديم أحمد شفيق باشا ـ ولكن لم تصدق النية ثم تبددت بين إمهال وإرجاء . اليوم لم يبق من النية القديمة إلا الحسرة بعد أن وهنت اليد وضعفت الذاكرة واضمحلت القوة . ففى ذمة الله ذكريات الأزهر، وصحبة الشيخ على محمود وزكريا أحمد وسيد درويش، حزب الأمة ما أعجبنى فيه وما نفرنى منه، الحزب الوطنى بحماساته وحماقاته، الوفد بثورته العالمية الخالدة، الخلافات الحزبية التى قوقعتنى فى حياد بارد لا معنى له، الإخوان الذين لم أحبهم، الشيوعيون الذين لم أفهمهم ، الثورة ومغزاها وامتصاصها للتيارات السابقة، غرامياتى وشارع محمد على، موقفى العنيد من الزواج . لو قيض لذكرياتى أن تكتب لكانت عجبا حقا .

زرت بحنان أثنيوس وباستوريدس وأنطونيادس . جلست وقتا فى بهو وندسور وسيسل، ملتقى الباشوات والساسة والأجانب فى الزمن القديم، وخير مجال لالتقاط الأخبار ومتابعة الأحداث، فلم أر إلا قلة من الأجانب شرقيين وغربيين . رجعت ولى عند الله دعاءان : دعاء بأن يمن على بحل مشكلة الإيمان، ودعاء بالا يصيبنى بمرض يقعدنى عن الحركة فلا أجد من يأخذ بيدى .

* * *

ما أجمل هذه الصورة النابضة بالشباب . قد وضعت على المقعد ركبة الساق اليمنى وأراحت الأخرى على الأرض، ومالت بجذعها نحو

مسند المقعد ملقية معصميها عليه، واستدار وجهها ليواجه الكاميرا باسما معتزا بملاحته وقد انحسر ديكولتيه الفستان الكلاسيكى الفضفاضى عن قاعدة العنق الطويل ونحر منبسط كالمرمر.

كانت قد ارتدت معطفها الأسود والإشارب الكحلى تأهبا لزيارة الطبيب، وجلست تنتظر الوقت المناسب للذهاب. سألتها:

ـ أقلت إن الثورة قد جردتك من مالك؟

فرفعت حاجبيها المزججين وقالت:

ـ ألم تسمع بكارثة الأسهم؟

لعلها قرأت فى عينى تساؤلا ففطنت إلى ما يدور بخلدى فقالت:

ـ ضاع ما ربحته أيام الحرب الثانية، صدقنى لقد ربحته بشجاعتى إذ أصررت على البقاء فى الإسكندرية عندما هاجر الكثيرون إلى القاهرة والأرياف خوفا من غارات الألمان، طليت النوافذ باللون الأزرق وأسدلت الستائر، ودار الرقص على ضوء الشموع، ولن تجد من يضاهى ضباط الإمبراطورية فى البذل والكرم.

وجدتنى وحيدا بعد ذهابها أنظر إلى عينى زوجها الأول وينظر إلىّ. ترى من قتلك وبأى سلاح؟. وكم من جيلنا قتلت قبل أن تقتل؟. جيلنا العتيد الذى فاق الأجيال جميعا فى غزارة ضحاياه.

* * *

الغناء الأفرنجى لا ينقطع. أقسى ما حكم الزمان به علىّ فى عزلتى ماريانا أخذت حماما ساخنا عقب عودتها من عند الطبيب، هاهى تجلس ملفوفة فى برنس أبيض وقد عقصت شعرها المصبوغ غارسة فيه عشرات المشابك المعدنية البيضاء. خفضت صوت الراديو إلى حد الهمس لتبدأ هى إذاعتها وقالت:

ـ مسيو عامر.. لا شك أن لديك مالا وفيرا؟

فسألتها بشىء من الحذر :

ـ هل عندك مشروعات؟

ـ كلا، ولكن فى مثل عمرك ـ وعمرى أيضا مع الفارق الكبير ـ لا يتهددنا شىء مثل الفقر والمرض .

قلت والحذر لم يفارقنى بعد :

ـ لقد عشت مستورا وأرجو أن أموت مستورا .

ـ لا أذكر أنك كنت مسرفا قط .

ترددت قليلا ثم قلت :

ـ أرجو أن يكون عمر المدخر من نقودى أطول من عمرى . . لوحت بيدها باستهانة وقالت :

ـ الطبيب شجعنى هذه المرة فوعدته بألا أحمل هما .

ـ جميل ألا نحمل هما .

ـ يجب أن نفرح ونلهو عندما تأتى ليلة رأس السنة .

قلت ضاحكا :

ـ نعم، على قدر ما تسمح قلوبنا .

راحت تهز رأسها فى تلذذ وتقول فى مناجاة :

ـ يا ليالى رأس السنة . .

فقلت منفعلا بذكريات بعيدة :

ـ كم أحبك الكبراء !

ـ لم أعرف الحب إلا مرة واحدة . .

ثم أشارت إلى صورة الكابتن . وعادت تقول :

ـ قتله طالب من الطلبة الذين أخدمهم اليوم !

ثم قالت بخيلاء :

ـ كان بنسيون السادة! . . يعمل به طاه ومرمطون وسفرجى وغسالة وخادمان، لا أحد يخدم به اليوم سوى غسالة أسبوعية!

ـ كبراء كثيرون يغبطونك على ما أنت فيه.

ـ أهذا عدل يا مسيو عامر؟

هو على أى حال طبيعى يا مدام.

اربد وجهها فضحكت متوددا وملاطفا.

* * *

﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾.

مضيت أقرأ سورة الرحمن الحبيبة إلى قلبى مذ كنت فى الأزهر. كنت غائصا فى مقعد كبير طارحا قدمى على وسادة. هطل المطر بغزارة فارتفع رنينه فوق درجات السلم المعدنى فى المنور.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾.

ثمة أصوات تقتحم الصمت خارج الحجرة فى البنسيون. رفعت رأسى عن الكتاب وأنصت. ضيف أم نزيل جديد؟. صوت ماريانا يرحب بحرارة لا تليق إلا بصديق حميم. وثمة ضحك أيضا. ثم وضحت نبرة غليظة من صوت أجوف. ترى من القادم. الوقت بعد العصر بقليل. والمطر ينهل بشدة، والغيوم تريق فى الحجرة ظلمة كالليل. ضغطت على زر الأباجورة حين لمع برق خاطف نضح به الشيش، وهزم الرعد.

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾.

* * *

يميل إلى القصر والبدانة، منتفخ الشدقين واللغد، وله عينان زرقاوان رغم سمرة بشرته، ذو طابع أرستقراطى لا تخطئه العين وينم عنه صمته المتكبر إذا صمت وحركات رأسه ويديه المتزنة المرسومة بدقة إذا تكلم. قدمته المدام باسم «طلبة بك مرزوق» فى مجلس المساء، ثم قالت تزيدنى معرفة به:

- كان وكيلا لوزارة الأوقاف ومن الأعيان الكبار.

لم يكن عندى فى حاجة إلى تعريف. عرفته من بعيد بحكم مهنتى على عهد النضال السياسى والحزبى. كان من المنتمين إلى أحزاب السراى وبطبيعة الحال من أعداء الوفد. وتذكرت أيضا أنه وضع تحت الحراسة منذ عام أو أكثر وأنه جرد من موارده عدا القدر المعلوم. أما المدام فقد تبدت فى أحسن أحوالها مرحا وعاطفية، نوهت مرارا بصداقتها القديمة لطلبة بك. وبرز حماسها المتدفق عندما دعته بمحبها القديم.

وقال لى الرجل ونحن نتبادل الحديث:

- قرأت لك كثيرا فيما مضى..

فضحكت ضحكة ذات مغزى فضحك بدوره قائلا:

- كنت تعطينى مثلاحيا لقوة البلاغة عندما تتصدى للدفاع عن باطل!

وضحك طويلا ولكننى لم أجادله. وقالت المدام تخاطبنى بشماتة:

- طلبة بك تلميذ قديم للجزويت، سنسمع الأغانى الأفرنجية معا ونتركك لتتعذب وحدك..

ثم بسطت راحتيها فى ترحيب وقالت:

- جاء ليقيم معنا..

فرحبت به فعادت تقول فى رثاء:

- كان يملك ألف فدان، كان يلعب بالمال لعبا..

هنا قال الرجل بامتعاض:

ـ انقضى عهد اللعب . .

ـ وأين كريمتك يا طلبة بك؟

ـ فى الكويت مع زوجها المقاول .

وكنت أعلم أن الحراسة قد فرضت عليه لشبهة تهريب بيد أنه فسر مأساته قائلا :

ـ خسرت أموالى جميعا ثمنا لنكتة عابرة!

فسألته :

ـ هل دعيت إلى تحقيق؟

فقال بازدراء :

ـ المسألة بكل بساطة أنهم كانوا فى حاجة إلى مالى . .

وكانت المرأة تنظر إليه بإمعان فقالت :

ـ تغيرت كثيرا يا طلبة بك .

ابتسم فوه الصغير المطوق بشدقيه ثم قال :

ـ أصابتنى جلطة كادت تقضى علىّ . .

ثم بشىء من العزاء :

ـ ولكننى أستطيع أن أشرب الويسكى فى حدود الاعتدال .

* * *

غمس الكروسان فى الشاى الممزوج باللبن ثم أكل بأناة من لم يألف الطاقم الجديد بعد . لم يكن على مائدة الإفطار سوانا وكانت الأيام القلائل الماضية قد قربت بيننا وأزالت حواجز الحذر فغلب الأنس بروح الجيل الواحد على الخلافات البالية ، وإن انطوى كل منا فى أعماقه على مزاج متفرد مناقض لصاحبه : ولكن تجىء أوقات يبرز فيها المزاج الثاوى فى الأعماق ليثير الغبار والتحديات . أجل قد سألنى بلا مناسبة :

ـ أتدرى ما السبب وراء المصائب التى حلت بنا؟

فتساءلت بدهشة :

ـ أى مصائب تعنى؟

ـ أيها الثعلب، إنك تعرف تماما ما أعنى .

ـ ولكن لم تحل بى المصائب من أى نوع كان . .

رفع حاجبيه الأشيبين وقال :

ـ لقد اغتيلت شعبيتكم كما اغتيلت أموالنا . .

ـ لعلك تذكر أننى خرجت من الوفد، بل من الأحزاب جميعا، منذ حادث ٤ فبراير . .

ـ ولو . . ثمة لطمة قد أطاحت بكبرياء الجيل كله . .

فقلت زاهدا فى الجدل :

ـ بصرف النظر عن موقفى فإنى مشوق إلى معرفة رأيك . .

قال بهدوء وازدراء :

ـ يوجد سبب بعيد فى طرف الحبل المشدود حول أعناقنا، شخص لا يكاد يذكره أحد . .

ـ من هو؟

ـ سعد زغلول!

لم أتمالك من الضحك فراح يقول بحدة :

ـ أجل، منذ دأب على إثارة الإحن بين الناس، والتطاول على الملك، وتملق الجماهير، رمى فى الأرض ببذرة خبيثة، مازالت تنمو وتتضخم كسرطان لا علاج له حتى قضى علينا . . .

* * *

لم يكن بالبالما إلا آحاد مضى طلبة مرزوق ينظر إلى ماء النيل شبه

الساكن فى ترعة المحمودية على حين مددت ساقى واستلقيت على مسند الكرسى كأنما أضطجع تحت شعاع الشمس النقى الدافئ. هاجرنا إلى أطراف الإسكندرية المزدحمة بالنبات والأزهار، التى تنعم أيام الصحو بالدفء والسلام، فآوينا إلى ركن من الجنة عامر بالبركات..

مهما يكن من غلو صاحبى وعصبيته فهو يستحق قدرا من الرثاء. عليه أن يبدأ حياة جديدة مريرة بعد الستين. إنه يغبط كريمته فى مهجرها ويرى أحلاما غريبة، لايطيق أن يسمع عن نظرية تبرر مأساته التاريخية. ويؤمن بأن الاعتداء على ماله إنما كان اعتداء على كون الله وسننه وحكمته.

- كدت أعدل عن الإقامة فى البنسيون عندما علمت بوجودك..

لم أصدق وسألته عن السبب:

- وقع اختيارى على بنسيون ميرامار بأمل ألا أجد فيه إلا صاحبته الخواجاية.

فسألته عما بدد سوء ظنه بى:

- فكرت، ثم اقتنعت بأن التاريخ لم يعرف عميلا فوق الثمانين!

ضحكت طويلا ثم سألته:

- ولم تخاف العملاء؟

- لا شيء فى الحقيقة غير أنى أروح عن نفسى أحيانا بالكلام.

ثم واصل حديثه بعصبية:

- لم يعد لى مقام فى الريف، وجو القاهرة يصر على إشعارى بهوانى. عند ذاك فكرت فى عشيقتى القديمة، وقلت لقدفقدت زوجها فى ثورة ومالها فى الثورة الأخرى، وإذن فسوف نعزف لحنا واحدا.

وأثنى على صحتى رغم طعونى فى السن وجعل يغرينى على مصاحبته فى دور السينما والمقاهى الشتوية. ثم تساءل :

- لماذا عدل الله عن سياسة القوة؟

لم أدرك مرماه قال متبسطا فى الشرح :

- أعنى الطوفان والرياح وغيرها.

فسألته بدورى :

- أتحسب أن الطوفان قد أهلك من البشر أكثر ممن أهلكتهم قنبلة هيروشيما؟

فلوح بيده ساخطا وقال :

- ردد دعايات الشيوعيين أيها الثعلب؟ إن أكبر خطأ فى حق البشرية قد وقع لدى تردد أمريكا فى الاستيلاء على سلطان العالم عندما كانت تملك وحدها القنبلة الذرية!

- خبرنى هل تجدد غرامياتك مع ماريانا؟

ضحك عاليا وقال :

- يا لها من فكرة جنونية، إنى شيخ هدمه العمر والسياسة وهيهات أن تحركنى إلا المعجزات، وأما هى فلم يبق لها من الأنوثة إلا ألوانها المجردة..

وضحك مرة أخرى ثم قال :

- وأنت هل نسيت تاريخك؟ لقد قرأت عن فضائحك فى مجلة الكشكول، عن جريك وراء الملاءات اللف بشارع محمد على..

ضحكت بلا تعليق فتساءل :

- هل رجعت أخيرا إلى الدين؟

- وأنت؟.. يخيل إلى أحيانا أنك لا تؤمن بشىء؟

فقال بحنق :

ـ كيف لا أومن بالله وأنا أحترق فى جحيمه؟!

* * *

ـ لقد خلق أمثالك للجحيم، لن يبارك الله لك فى شىء، اخرج مطرودا من هذا المكان الطاهر، كما طرد إبليس من رحمة الله.

* * *

دقت الساعة الكبيرة فى الصالة معلنة انتصاف الليل. تجاوبت أركان المنور بصفير هواء قوى. أقعدنى الكسل والدفء وأنا غائص فى المقعد الكبير عن القيام إلى الفراش. وثقلت علىّ وحدتى بعد أن انفردت بى فى الحجرة الخالية فقلت لنفسى ما جدوى الندم بعد الثمانين.

وإذا بالباب يفتح دون استئذان ويقف طلبة مرزوق على عتبته قائلا :

ـ معذرة، أدركت من ضوء الحجرة أنك لم تنم.

نظرت نحوه باستغراب. لقد شرب الليلة أكثر مما يشرب عادة. وسألنى متهكما وحركات رأسه تواكب نبرته :

ـ أتعلم كم كان يكلفنى فى الشهر الواحد الدواء والفيتامينات والهرمونات والروائح والدهون وخلافه؟!

انتظرت أن يتكلم ولكنه أغمض عينيه كأن الجهد أرهقه، ثم تراجع فأغلق الباب ومضى.

* * *

السرادق مكتظ بالخلق، ساحة المولد كيوم الحشر، والصواريخ تنطلق فى الفضاء. انشق النور وانعدم الظلام لمولد أحمد. وتهادت الرولزرويس حتى وقفت أمام السرادق. هبط منها طلبة مرزوق فخف لاستقباله أقوام وأقوام من السادة الدمرداشية. طريقة الرجل الذى جمع فى قلبه بين الرسول والمندوب السامى. ولمحنى صاحب الرولزرويس

فأعرض عنى فى كبرياء. وقيل ليلتها إنك جئت ثملا كما جئتنى الليلة. ودعى سيد المطربين إلى وسط السرادق فأنشد «ياسماء ما علتك سماء». وفى الهزيع الأخير من الليل غنى «أحب اشوفك» فأطاح بعقول المريدين. متى كانت تلك الليلة العجيبة؟. على التحديد لا أذكر ولكنها حتما سبقت وفاة الرجل الجليل وإلا ما صفا لى الطرب.

* * *

كنت أجلس فى المدخل ولا أحد معى فى البنسيون عندما دق الجرس. فتحت الشراعة على طريقة المدام فرأيت أمامى وجها انشرح لمرآه صدرى. من النظرة الأولى انشرح له صدرى. وجه أسمر لفلاحة مطوقة الرأس ولوجه بطرحة سوداء: أصيلة الملامح مؤثرة جدا بنظرة عينيها الحلوة المترقبة:

ـ من أنت؟

ـ أنا زهرة!

قالتها ببراءة وثقة كأنما تنطق باسم علم من الأعلام. سألتها وأنا أبتسم:

ـ ماذا تريدين يا زهرة؟

ـ الست ماريانا.

فتحت لها الباب فدخلت حاملة بقجة صغيرة. نظرت فيما حولها ثم سألت:

ـ أين الست؟

ـ ستجىء بعد قليل، اجلسى.

جلست على مقعد واضعة البقجة على حجرها فعدت إلى مجلسى فى نشاط جديد. جعلت أنظر إليها، إلى تكوينها القوى الرشيق، وملاحتها الفائقة، وشبابها الغض، وأنا فى غاية من الارتياح.

واستسلمت لرغبة فى محادثتها فقلت :

ـ قلت إن اسمك زهرة؟

ـ زهرة سلامة .

ـ من أين يا زهرة؟

ـ من الزيادية بحيرة .

ـ على ميعاد مع المدام؟

ـ لا . .

ـ إذن؟

ـ جئت لأقابلها .

ـ تعرفك طبعا؟

ـ نعم .

تمليت جمالها وشبابها بارتياح لم أشعر بمثله من دهر ثم عدت أسألها :

ـ هل تعيشين فى الإسكندرية من زمن طويل؟

ـ لم أعش فى الإسكندرية ، ولكن زرتها مرارا مع المرحوم أبى .

ـ وكيف عرفت المدام؟

ـ كان أبى يجيئها بالجبن والزبد والسمن والدجاج ، وكنت أجىء معه أحيانا .

ـ فهمت ، تنوين يا زهرة أن تحلى محل أبيك .

ـ لا . .

حولت عينيها إلى البارفان كأنما لتتفادى من المزيد فاحترمت سرها وازددت لها حبا . وبكل حنان دعوت لها فى سرى أن يحفظها الله .

* * *

قلت وأنا أقبل يدها المعروقة المدبوغة «ببركة دعواتك أصبحت رجلا ولا كل الرجال، هلمى معى إلى القاهرة» فقالت وهى تتطلع نحوى بحنان: «فليزدك الله من خيره وبركاته، أما أنا فلن أغادر البيت، إنه حياتى وعمرى».

بيت نحيل، مقشر الجدران، تلطمه الرياح وتستقر أملاح البحر على أحجاره، وتلفحه روائح السمك المكدس على شاطئ الأنفوشى.

قلت: «لكنك تعيشين هنا وحدك».

فقالت: «معى خالق الليل والنهار».

* * *

دق الجرس فقامت زهرة ففتحت الباب. نظرت إليها المدام بدهشة ثم هتفت:

ـ زهرة!.. غير معقول..

لثمت الفتاة يدها مشرقة الوجه لحرارة الترحيب.

ـ جميل أن أراك، الله يرحم والدك، تزوجت يا زهرة.

ـ كلا.

ـ غير معقول!

وضحكت عاليا ثم التفتت إلىّ قائلة:

ـ زهرة بنت رجل طيب يا مسيو عامر..

ومضتا معا إلى الداخل حين جاش صدرى بحنان وأبوة.

* * *

ولما جمعنا مجلس الليل ـ أنا وطلبة وماريانا ـ قالت المدام:

ـ أخيرا ارتحت.

وسكتت لحظة ثم واصلت:

ـ زهرة ستعمل عندى .

اجتاحنى إحساس غريب بالفرح والضيق معا ثم سألت :

ـ أجاءت لتعمل خادمة؟

ـ نعم، لم لا ، ستكون على أى حال فى مركز ممتاز .

ـ ولكن ما . .

ـ كانت تستأجر نصف فدان وتزرعه بنفسها، ما رأيك فى ذلك؟

ـ جميل ولكن لم تركت أرضها؟

نظرت إلىّ مليا ثم قالت :

ـ لقد هربت .

ـ هربت !

قال طلبة ساخرا :

ـ اعتبروها إقطاعية !

ـ أراد جدها أن يزوجها من عجوز مثله لتخدمه، والباقى معروف . .

قلت بحزن :

ـ حدث خطير لا تهضمه القرية .

ـ لا أحد لها بعد جدها إلا شقيقتها الكبرى وزوجها . .

ـ وإذا عرفوا أنها هنا؟

ـ محتمل ولكن ماذا يهم؟

ـ ألا تخشين . .

ـ ليست صغيرة، وما فعلت إلا أننى آويتها وأعطيت لها عملا شريفا . .

ثم بإصرار :

ـ مسيو عامر . لن أتخلى عنها . .

لن أتخلى عن واجبى مادام فىّ عرق ينبض، ولتفعل بنا القوة ما تشاء.

* * *

وراحت تعلمها وزهرة تتعلم بسرعة فائقة وماريانا تقول بسرور:

ـ البنت مدهشة يا عامر بك، مدهشة، ذكيةوقوية، من مرةواحدة تعرف المطلوب، أنا بختى عال.

وقالت لى فى مرة أخرى:

ـ ما رأيك، خمسة جنيهات غير الأكل واللبس.

أعلنت ارتياحى ثم قلت برجاء:

ـ لا تلبسيها بطريقة عصرية!

ـ أتريدها أن تلبس كالفلاحات؟

ـ عزيزتى، البنت جميلة، فكّرى فى الأمر.

ـ أنا عينى مفتوحة دائما.، والبنت طيبة يا مسيو عامر.

هكذا خطرت زهرة فى فستان من الكستور فصل على جسمها الرشيق ليبرز محاسنه، ربما لأول مرة، بعد طول اختفاء تحت الجلباب الفضفاض المسترسل حتى الكعبين، ومشط شعرها جيدا بعد أن غسل بالجاز ثم فرق فى وسط الدماغ ليجتمع فى ضفيرتين انسابتا فى امتلاء وراء الأذنين.

ورآها طلبة مرزوق فنظر إليها متفرسا ثم مال نحوى بعد ذهابها وهمس قائلا:

ـ سنشاهدها فى الصيف القادم فى الجنفواز أو مونت كارلو.

فقلت باستياء:

ـ فال الله ولا فالك يا شيخ!

ثم مر بها وهو فى طريقه إلى الخارج فسألها مداعبا:

ـ هل فيك عرق أجنبى يا زهرة؟

شيعته بنظرة متسائلة. واضح أنها لن تستلطفه. ونظرت نحوى فقلت لها:

ـ إنه يداعبك، فاعتبرى قوله نوعا من الثناء..

ثم قلت باسما:

ـ وأنا أيضا من عشاقك يا زهرة..

فابتسمت ابتسامة صافية فلم أشك فى أنها تبادلنى مودة بمودة وسررت بذلك جدا. وكانت المدام تدعوها ـ بعد انتهاء العمل ـ للجلوس معنا فى المدخل حول الراديو، فكانت تختار مقعدا بعيدا بعض الشيء عنا وعلى كثب من البارفان وتتابع أحاديثنا برغبة جادة فى الاستطلاع والفهم، واستأنستها بمودتى فصرنا صديقين، وتبادلنا الكلام كثيرا فى الفرص المتاحة.

وقصت علينا ذات ليلة قصتها بنفسها وهى تظن أننا نسمعها لأول مرة. ثم قالت تعليقا على بعض ظروفها:

ـ أراد زوج أختى أن يأكلنى فزرعت أرضى بنفسى!

ـ ألم يشق عليك ذلك يا زهرة؟

ـ كلا، إنى قوية بحمد الله، لم يغلبنى أحد فى المعاملة، لا فى الحقل ولا فى السوق.

فقال طلبة مرزوق ضاحكا:

ـ ولكن الرجال يهتمون بأمور أخرى أيضا؟

فقالت بتحد لطيف:

ـ أكون رجلا عند الضرورة..

فأمنت على قولها بحماس . وقالت المدام :

ـ زهرة ليست غشيمة ، كانت تصحب أباها فى جولاته ، كان يحبها جدا . .

فقالت بحزن :

ـ وكنت أحبه أكثر من عينى ، أما جدى فلا يفكر إلا فى الانتفاع من ورائى . .

ولكن طلبة عاد إلى معاكستها قائلا :

ـ لو كان باستطاعتك أن تكونى رجلا فلم اضطررت إلى الهرب؟

فقلت مدافعا عنها :

ـ يا طلبة بك ، أنت أدرى بجو القرى ، وقداسة الأجداد ، والتقاليد الرهيبة ، كان عليها أن تبقى لتصير زوجة زائفة أو أن تهرب . .

رمقتنى بامتنان ، ثم قالت بأسف :

ـ تركت أرضى . .

وإذا بطلبة يقول :

ـ سيقولون إنك هربت لكيت وكيت . .

حدجته بنظرة غاضبة ، واكفهر وجهها كأنما اتخذ من ماء الفيضان بشرة جديدة ، وفردت سبابتها والوسطى وهى تقول بخشونة :

ـ أغرزهما فى عين من تقول علىّ بالباطل . .

هتفت المدام :

ـ زهرة ألا تفرقين بين الجد والدعابة؟

وقلت بدورى ملاطفا وقد أخذت بغضبتها :

ـ إنه يداعبك يا زهرة . .

وملت نحوه متسائلا :

ـ أين لباقتك يا عزيزى؟

فأجابنى باستهانة:

ـ موضوعة تحت الحراسة!

* * *

عيناها عسليتان، وجنتاها دسمتان موردتان، فى ذقنها غمازة. بالكاد حفيدتى الصغرى، أما جدتها المحتملة فقد مرت فى لمح البصر. لم يدركها حب ولا زواج. المستحيل تذكر ملامحها. بيرجوان والدرب الأحمر وسيدى أبو السعود طبيب الجراح.

* * *

ـ حتى متى تبقى هنا يا سيدى؟

كانت تجيئنى فى حجرتى بقهوة العصر فأستبقيها حتى أفرغ رغبة فى حديثها.

ـ إنى مقيم هنا يا زهرة.

ـ وأسرتك؟

قلت ضاحكا:

ـ لا أحد لى فى الدنيا سواك.

فضحكت من أعماق قلبها فى مرح. يدها صغيرة صلبة خشنة الأنامل. قدماها مفلطحتان كبيرتان. أما الجسم والوجه فسبحان الله العظيم.

ومرة همست لى:

ـ إنه ثقيل الدم!

قلت لها مستعطفا:

ـ إنه رجل كبير سيئ الحظ، وبه مرض..

ـ يظن نفسه باشا وقد مضى عهد الباشوات .

وقع قولها من أذنى موقعا غريبا فدار رأسى فى دائرة سحرية قطرها قرن كامل .

* * *

ـ يأبون زيارة وزير الحقانية لأنه أفندى . .

ـ يا دولة الزعيم ، لرجال القضاء مهابتهم !

ـ إنى فلاح قبل كل شىء أما هم فشراكسة . .

ثم ماضيا فى تصميم :

ـ اسمع ، طالما عيرونى بالغوغاء ففاخرتهم بأننى زعيم الرعاع ذوى الجلاليب الزرق ، اسمع . لابد أن تتم الزيارة . . وبكل احترام . .

* * *

حتى أنواع الويسكي حفظت أسماءها وهى تبتاعها من بقالة الهاى لايف . وكانت تقول لى :

ـ كلما طلبتها رمقتنى الأبصار وضحكت الوجوه . .

فرددت فى نفسى «ليحفظك الله» .

* * *

يا لها من ضوضاء . الأصوات ليست بالغريبة ولكنها تصرخ محتدمة . ماذا يجرى خارج الغرفة؟ . غادرت الفراش والساعة تدق الخامسة مساء . تلفعت بالروب ومضيت إلى الخارج . لمحت طلبة وهو يختفى فى حجرته ضاربا كفا على كف . رأيت زهرة جالسة مقطبة وشبه باكية مقوسة الظهر والمدام واقفة أمامها فى غاية من الكدر . ماذا هناك؟ .

قالت المدام لما رأتنى :

ـ زهرة سيئة الظن جدا يا عامر بك !

تشجعت زهرة بحضورى فقالت بخشونة :

ـ أراد أن أدلكه!

بادرتها المدام :

ـ إنك لا تفهمين، إنه مريض، كلنا نعلم ذلك، فى حاجة إلى تدليك، كان يسافر كل سنة إلى أوروبا، ومادمت لا تريدين فلن يرغمك أحد . .

قالت زهرة بحدة :

ـ لم أسمع عن ذلك من قبل، دخلت حجرته بنية سليمة فرأيته منطرحا على وجهه شبه عار!

ـ كفى يا زهرة، الرجل كبير، أكبر من والدك، ليس إلا سوء تفاهم، قومى فاغسلى وجهك وانسى الأمر كله . .

جلسنا على كنبة من الآبنوس وحدنا . الهواء يصرخ فى الخارج والنوافذ تصطك . غشانا صمت ثقيل مرهق فقالت المدام :

ـ هو الذى طلب، وأنا لا أشك فى نيته . .

تمتمت بلهجة ذات معنى :

ـ ماريانا!

تساءلت بحدة :

ـ أتشك فى نيته؟

ـ العبث لا حدود له!

ـ لكنه شيخ كما تعلم؟

ـ وللشيوخ عبثهم أيضا!

ـ قلت إنها أولى بالنقود من أخرى غريبة!

ـ إنها فلاحة . .

ثم ذكرتها قائلا :

ـ وقد وضعتها فى حماك!

* * *

وجاء طلبة فاتخذ مجلسه في بساطة البرىء وانطلاقته . وراح يقول :

ـ الفلاح يعيش فلاحا ويموت فلاحا . .

فقلت بضيق :

ـ دعها تعيش وتموت على ما فطرها الله عليه . .

قال بامتعاض :

ـ قطة متوحشة ، لا يغرك منظرها فى الفستان ، وجاكتة المدام الرمادية ، إنها قطة متوحشة . .

إنى حزين من أجلك يا زهرة . أدرك الآن مدى وحدتك .

وليس البنسيون بالمكان المناسب لك . والمدام ـ حاميتك ـ لن تتورع عند أول فرصة عن اتهام براءتك . .

وتساءل طلبة مرزوق بعد الكأس الأولى قائلا :

ـ منذا يحدثنى عن حكمة الله فى خلقه؟

فهتفت ماريانا مرحبة بتغيير مجرى الحديث :

ـ حاسب أن تكفر يا طلبة بك!

فأشار إلى تمثال العذراء وسأل :

ـ خبرينى يا سيدتى لماذا رضى الله بأن يصلب ابنه؟

فقالت بجد :

ـ لولا ذلك لحلت بنا اللعنة!

فضحك طويلا ثم قال :

ـ ألم تحل بنا اللعنة بعد؟

وكان يسترق إلى النظر وأنا أتجاهله حتى لكزنى بكوعه وهو يقول :

ـ أيها الثعلب، عليك أن تصالحنى مع زهرة . .

* * *

نزيل جديد؟

شىء فى وجهه الأسمر الواضح الملامح يشى بأنه فلاح معتدل القامة فى غير امتلاء سمرته أميل إلى العمق، له نظرة قوية، فى الثلاثين من عمره. دعته المدام إلى مقعد من مائدة الإفطار وهى تقول :

ـ ميسو سرحان البحيرى .

ثم قدمتنا إليه، وطلبت منه أن يزيدنا تعريفا بنفسه إن شاء فقال بصوت قوى ذى طعم ريفى متمدن :

ـ وكيل حسابات شركة الإسكندرية للغزل .

وعقب خروجه ضحكت المدام معلنة عن سرورها وقالت :

ـ نزيل مقيم أيضا وبنفس الشروط !

ولم يكد يمضى أسبوع حتى جاء حسنى علام للإقامة أيضا : وهو شاب يصغر سرحان بقليل، ربعة أبيض اللون، ذو بنيان متين يليق بمصارع، وقالت المدام : إنه من أعيان طنطا .

وأخيراً جاء منصور باهى مذيع بمحطة الإسكندرية، فى الخامسة والعشرين، وقد أثر فىّ وجهه الرقيق وقسماته الصغيرة الجميلة، أجل فيه شىء من الطفولة ولا أقول الأنوثة ولكن بدا من أول الأمر أنه يعيش فى ذاته عسير الألفة .

إذن قد شمل العمران الحجرات جميعا وطارت المدام من الفرح، وتوثب قلبى للترحيب والتعارف ولإشباع عواطفه المتعطشة . وقلت للمدام :

ـ شباب مرح جميل فلعلهم لايزهدون فى مجلسنا العجوز !

فقالت بسرور :

ـ وليسوا طلبة على أى حال .

لم يتجاوز التعارف حدوده الرسمية ، حتى اقتربت الليلة الأولى لموسم أم كلثوم فعلمت أنهم سيسهرون معنا حول الراديو وأنها ستكون ليلة طيبةعامرة بالشباب والغناء .

* * *

أعدوا فيما بينهم عشاء من الشواء وشرابا من الويسكى . . جلسنا حول الراديو وزهرة تقوم على خدمتنا كنحلة . الليلة باردة ولكنها صامتة لم نسمع للرياح فيها صوتا وقالت زهرة : إن السماء صافية وإنك تستطيع أن تعد النجوم . ودارت الكئوس وزهرة جالسة عند البارفان تراقبنا بنظرة باسمة . عانى طلبة مرزوق وحده قلقا خفيا . قال لى قبل السهر بأيام : «سينقلب البنسيون جحيما» . إنه يخاف الأغراب ، ولم يشك فى أنهم يحيطون بتاريخه وظروف حراسته علما ، إن لم يكن عن طريق الصحف فعن سبيل المذيع منصور باهى .

وكانت المدام كعادتها قد استخلصت منهم المعلومات الخليقة بأن تشبع تطفلها الأبدى :

ـ مسيو سرحان البحيرى من أسرة البحيرى !

لم أسمع عن الأسرة من قبل ولا بد على طلبة مرزوق نفسه أنه سمع بها .

ـ وقد دله صديق على البنسيون لما علم بضيقه بشقته القديمة . .

وحسنى علام؟

ـ مسيو حسنى من أسرة علام بطنطا . .

وخيل إلىّ أن طلبة يعرفها ، ولكنه تجنب الحديث ما أمكنه .

ـ وهو يملك مائة فدان . .

قالتها بزهو كأنها هى المالكة.

ـ لم تزد ولم تنقص فالثورة لم تمسه . .

وتهلل وجهها كأنما النجاة كانت لها.

ـ وقد جاء الإسكندرية لينشىء لنفسه عملا . .

هنا سأله سرحان:

ـ ولم لا تزرع أرضك؟

فقال باقتضاب:

ـ مؤجرة.

فتفحصه سرحان بنظرة مداعبة ثم قال:

ـ قل إنك لم تزرع فى حياتك قيراطا . .

وضحك ثلاثتهم ولكن برزت ضحكة حسنى المجلجلة.

ثم أشارت المدام إلى منصور باهى وقالت:

ـ أما هذا فهو شقيق صديق قديم يعتبر من أحسن ضباط البوليس الذين عرفتهم الإسكندرية . .

خيل إلىّ أن أشداق طلبة قد ازدادت انتفاخا.

ـ وقد أشار عليه لدى نقله من الإسكندرية قريبا بالإقامة فى بنسيون ميرامار . .

مال طلبة نحوى منتهزا فرصة انشغالهم بالشراب وهمس:

ـ وقعنا فى وكر للجواسيس!

فهمست له بدورى:

ـ لقد ولت أيام الوحشية فلا تكن سخيفا.

وإذا بالسياسة تفرقع فى السمر. وبدا سرحان متحمسا بلا حدود:

ـ لقد خلق الريف خلقا جديدا . .

كان صوته يتغير تبعا لامتلائه بالطعام أو خلوه منه :

ـ كذلك العمال ، إنى أعيش بينهم فى الشركة فتعالوا وانظروا بأنفسكم .

وسأله منصور باهى ـ إنه أميلهم للصمت وقد ينفجر ضاحكا كأنه شخص آخر . .

ـ أتشتغل بالسياسة بالفعل؟

ـ من هيئة التحرير إلى الاتحاد القومى ، واليوم فأنا عضو بلجنة العشرين وعضو مجلس الإدارة المنتخب عن الموظفين . .

ـ ألم تشتغل بالسياسة من قبل؟

ـ كلا . .

وقال حسنى علام :

ـ إنى مقتنع تماما بالثورة . لذلك أعتبر ثائرا على طبقتى التى جاءت الثورة لتصفيتها . .

فقال منصور باهى :

ـ على أى حال فالثورة لم تمسك .

ـ ليس ذاك هو السبب ، فحتى فقراء طبقتنا قد لا يحبون الثورة . .

وأخيرا قال منصور باهى :

ـ إنى مقتنع تماما بأن الثورة كانت أرفق بأعدائها مما يجب !

والظاهر أن طلبة مرزوق ظن أنه إن لزم الصمت فقد يضره الصمت ، لذلك قال :

ـ لقد حاق بى ضرر بالغ فأكون منافقا لو قلت إننى لم أتألم ، ولكننى أكون أنانيا كذلك لو أنكرت أن ما عمل هو ما كان ينبغى أن يعمل . .

عندما آويت إلى حجرتى قبيل الفجر لحق بى فسألنى عن رأيى فيما قال فأجبته بصوت غريب بعد أن نزعت طاقم أسنانى :

ـ رائع . .

ـ أتظن أن أحدا صدقنى؟

ـ لا يهم . .

ـ يحسن بى أن أبحث عن مقام آخر . .

ـ لا تكن سخيفا .

ـ كلما سمعت ثناء على إجراءات قتلى تعرضت لأزمة روماتزم!

ـ عليك أن تروض نفسك عليه .

ـ كما تفعل أنت؟!

فقلت ضاحكا :

ـ إننا مختلفان منذ الأزل كما تعلم .

فمضى وهو يقول لى :

ـ أتمنى لك أحلاما مزعجة!

* * *

وقالت المدام ولم تكن تشارك فى الشراب وقنعت من الطعام بشريحة شواء وكوب حليب دافئ :

ـ عيب ثومة أنها تبدأ فى وقت متأخر!

ولكن الشبان نجحوا فى التغلب على آلام الانتظار . وفاجأنى منصور باهى قائلا :

ـ إنى أعرف من تاريخك الشىء الكثير .

اجتاحنى فرح صبيانى كأنما رددت إلى فترة من فترات الشباب فمضى يفسر قوله :

ـ راجعت الصحف القديمة مرات وأنا بصدد إعداد برنامج إذاعى . .

تطلعت إليه مستزيدا فى اهتمام فقال :

ـ تاريخ طويل حقا، أسهمت بقدر ملحوظ فى شتى تياراته، حزب الأمة، الحزب الوطنى، الوفد، الثورة . .

قبضت على الفرصة بجنون، مضيت به إلى رحلة فى رحاب التاريخ نوهت بمواقف لا يجوز أن تنسى، استعرضنا الأحزاب . حزب الأمة ما له وما عليه، والحزب الوطنى ما له وما عليه، والوفد وحله للمتناقضات القديمة وقاعدته الشعبية من الطلبة والعمال والفلاحين لماذا جنحت بعد ذلك للاستقلال، ثم لماذا أيدت الثورة . .

ـ ولكنك لم تهتم بالمشكلة الاجتماعية الجوهرية؟

فقلت ضاحكا :

ـ لقد نشأت عهدا بالأزهر فلم يكن غريبا أن أعمل كمأذون شرعى رسالته فى الحياة أن يوفق بين الشرق والغرب فى الحلال!

ـ أليس غريبا أن تحمل على النقيضين معا، أعنى الإخوان والشيوعيين؟

ـ كلا، كانت فترة حيرة، ثم جاءت الثورة لتمتص خير ما فيهما معا .

ـ إذن فقد انتهت حيرتك؟

أجبت بالإيجاب . ثم تذكرت حيرتى الخاصة التى لا تحل بحزب أو ثورة فرددت فى نفسى الدعاء الذى لا يدرى به أحد .

وآن الأوان فدفعت بقاربى المضطرب إلى بحر الأنغام والطرب نشدته أن يكون من الأعضاء المتنافرة المتناحرة جسما ينبض بالروح والانسجام . نشدته أن يعلمنى التوافق والتوازن فى بناء ترعاه عين الحب والسلام . أن يصهر عذاباتى فى نغمة تنعش القلب والعقل بجمال البصيرة . أن يسكب الشهد المصفى على عناد الوجود .

ألم تسمع بالخبر العجيب؟ . . لقد اجتمع مجلس النظار أمس بعوامة منيرة المهدية . .

* * *

ـ شبان ظرفاء وأغنياء!

هكذا جعلت تردد ماريانا. وقد زادت أعباء زهرة ولكنها حملتها بهمة عالية حقا. أما طلبة مرزوق فراح يقول:

ـ إنى لا أطمئن إلى أحد منهم.

فسألته ماريانا:

ـ ولا حسنى علام؟

فواصل حديثه قائلا:

ـ سرحان البحيرى أشدهم خطورة، لقد انتفع بالثورة إلى أقصى حد، ودعك من أسرة البحيرى التى لم يسمع بها أحد، ثم إن كل مولود فى البحيرة فهو بحيرى، حتى زهرة فهى زهرة البحيرى . .

ضحكت كما ضحكت المدام. ومرت بنا زهرة فى طريقها إلى الخارج لأداء واجب من واجباتها، فرأيتها مطوقة الرأس بإيشارب أزرق ابتاعته بنقودها، تخطر فى جاكتة المدام الرمادية، فاتنة من فاتنات الأعشاب الندية والزهور البرية. وعدت أقول:

ـ منصور باهى فتى ذكى، ما رأيك؟ . . لا يحب الكلمات الجوفاء، ويخيل إلى أنه ممن يعملون فى صمت، ثم إنه من جيل الثورة الخالص . .

ـ ما الذى يدعوه، هو أو غيره، إلى الالتصاق بالثورة؟

ـ إنك تتكلم كأنما لا يوجد بالوطن فلاحون ولا عمال ولا شبان!

ـ لقد سلبت البعض أموالهم وسلبت الجميع حريتهم!

فقلت ساخرا :

ـ إنك تتكلم عن حرية بالية، وحتى هذه لم تحظ باحترامكم أيام سطوتكم . .

* * *

وأنا خارج من الحمام رأيت فى الطرقة شبحين، زهرة وسرحان البحيرى . فى مهامسة أو مناجاة . لعله أراد أن يدارى موقفه فرفع صوته متحدثا فى بعض الشئون التى تعد الفتاة مسئولة عنها . مضيت إلى حجرتى كأنما لا أرى ولا أسمع ولكن اجتاحنى القلق . كيف تحافظ زهرة على راحة بالها فى خلية غاصة بالشبان؟ . وعندما جاءتنى بقهوة العصر سألتها :

ـ أين تقضين عطلتك الأسبوعية مساء الأحد؟

أجابت بابتهاج :

ـ فى السينما .

ـ وحدك؟

ـ مع المدام .

قلت من قلب محب :

ـ فليحفظك الله . .

ابتسمت قائلة :

ـ إنك تخاف علىّ كما لو كنت طفلة .

ـ وإنك لطفلة يا زهرة .

ـ كلا، تجدنى فى وقت الشدة كالرجال .

قربت وجهى من وجهها الجميل المحبوب وقلت :

ـ زهرة . هؤلاء الشبان لا يعرفون للهو حدودا، أما عند الجد . .

وفرقعت بأصابعى، ولكنها قالت:

ـ حدثنى أبى عن كل شىء..

ـ إنى فى الواقع أحبك وأخاف عليك.

ـ أنا فاهمة، لم أعرف رجلا مثلك منذ أبى، وأنا أحبك أيضا.

لم أسمع بكلمة الحب من قبل بهذه النعومة الرائقة. وكان من الجائز أن تخاطبنى بها عشرات الأفواه البريئة لولا تهمة ألقيت بغباء، تهمة لا يمكن أن يقضى فيها أحد من الناس.

* * *

البرقع الأبيض.

خرجت العجوز من الباب إلى الحارة وهى تقول:

ـ هلمى قد كف المطر.

تبعتها صاحبة البرقع الأبيض تمشى فى حذر على أرض زلقة متجنبة نقرة مملوءة بماء المطر. عفى الزمان على ذكريات جمالها إلا الأثر تنحيت جانبا وأنا أردد فى نفسى سبحان الخلاق ذو النعم. واهتز الفؤاد من أعماقه فقلت أتوكل على الله وخير البر عاجله.

* * *

فى المدخل وحدنا وقد جلست تحت العذراء تعكس عيناها الزرقاوان نظرة مثقلة بالفكر. وكان المطر يهطل بلا توقف منذ الظهر والسحب تتتابها نوبات رعدية متفجرة. قالت المدام:

ـ مسيو عامر، إنى أشم رائحة غريبة!

رمقتها بحذر فقالت باستياء:

ـ زهرة!

ثم بعد وقفة قصيرة:

ـ وسرحان البحيرى!

انقبض صدرى ولكننى تساءلت بسذاجة:

ـ ماذا تعنين؟

ـ أنت تفهم تماما ما أعنى . .

ـ ولكن الفتاة . .

ـ قلبى لا يخوننى فى هذه الأمور!

ـ البنت طيبة وشريفة يا عزيزتى ماريانا.

ـ مهما يكن من أمرها فإنى لا أحب أن يلعب أحد من وراء ظهرى! إما أن تبقى زهرة شريفة وإما أن تعمل لحسابك. إنى أفهمك تماما أيتها العجوز.

* * *

حلمت ـ وأنا مستغرق فى القيلولة ـ بالمظاهرة الدامية التى اقتحم الإنجليز على أثرها ساحة الأزهر، وفتحت عينى وأصوات المتظاهرين وطلقات الرصاص تدوى فى رأسى. كلا إنها أصوات من نوع آخر تجتاح البنسيون خارج حجرتى. ارتديت الروب وغادرت الحجرة وأنا من الانزعاج فى نهاية. وجدت الجميع قد سبقونى إلى المدخل. البعض فى حال استطلاع مثلى أما سرحان البحيرى فكان ثائرا متسخطا وهو يسوى الكرافتة وياقة القميص، كذلك زهرة كانت مصفرة الوجه من الغضب وقد تمزقت طاقة فستانها وراح صدرها يعلو وينخفض، على حين مضى حسنى علام إلى الخارج بالروب آخذا معه امرأة غريبة وهى تصرخ وتسب وقد بصقت فى وجه سرحان البحيرى قبل أن يغيبها الباب. وصاحت المدام:

ـ لا يجوز هذا فى بنسيون محترم . .

وجعلت تردد بحدة «لا . . لا . . لا».

ثم خلا المدخل إلا من ثلاثتنا أنا وهى وطلبة مرزوق. سألت ولما أفق من النوم تماما:

ـ ماذا حدث؟

فأجابنى طلبة مرزوق:

ـ لم أر أكثر مما رأيت إلا القليل..

وذهبت المدام إلى حجرة سرحان للاستماع فيما بدا أما طلبة فواصل الحديث قائلا:

ـ يبدو أن صاحبنا البحيرى دون جوان عتيد!

ـ ما الذى حملك على هذا الظن؟

ـ ألم تر إلى المرأة وهى تبصق عليه؟

ـ ولكن من المرأة الغريبة؟

ـ امرأة، أى امرأة!

ثم وهو يضحك:

ـ امرأة جاءت تسعى وراء رجلها الهاجر!

وجاءت زهرة وهى ما زالت منفعلة فمضت تقول دون سؤال من أحد:

ـ فتحت الباب للأستاذ سرحان وإذا بامرأة تتبعه وهو لا يدرى ثم اشتبكا فى عراك حام.

ورجعت المدام فقالت وهى واقفة:

ـ الفتاة كانت خطيبته، أو هذا ما فهمته..

وضح كل شىء فيما أعتقد غير أن طلبة مرزوق سأل بخبث:

ـ وما دخل زهرة فى الموضوع؟

فأجابت زهرة:

ـ أردت أن أخلص بينهما فتحولت إليّ ثم كان ما كان!

فقال الرجل:

ـ إنك ملاكمة جبارة يا زهرة!

فقلت برجاء:

ـ فلنعتبر الموضوع منتهيا من فضلكم..

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓمٓ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾.

سمعت يدا تنقر على الباب مستأذنة فى الدخول. دخلت المدام باسمة ثم جلست أمامى على مقعد بلا ظهر أطرح عليه ساقى أحيانا. ثمة زوبعة كانت تعوى فى المنور وأنا مدثر بالروب، والحجرة نعسانة فى جوها شبه المظلم الذى لا يدل على وقت. قالت وهى تغالب ضحكة:

ـ إليك نبأ عجيبًا..

أغلقت الكتاب ووضعته على الكوميدينو وأنا أغمغم:

ـ ليكن سارا يا عزيزتى..

ـ زهرة قررت أن تتعلم..

نظرت إليها ببلاهة ولم أفهم شيئا.

ـ حقا قررت أن تتعلم، قالت لى إنها ستغيب ساعة كل يوم لتتلقى درسا..

قلت :

ـ هذا مذهل حقا . .

ـ عندنا فى العمارة بالدور الخامس أسرة فيها ابنة مدرسة اتفقت معها . .

ـ أكرر أنه قرار مذهل حقا!

ـ من جانبى لم أعارضها وإن أشفقت على أجرتها التى ستستولى عليها المدرسة . .

ـ جميل منك هذا يا مدام ولكنى مذهول بكل معنى الكلمة!

ولما جاءتنى زهرة بقهوة العصر قلت لها :

ـ تخفين عنى أسرارك يا ماكرة!

قالت بحياء :

ـ لا أسرار تخفى عليك .

ـ وقرارك عن التعليم؟ . . خبرينى كيف فكرت فى ذلك؟

ـ كل البنات تتعلم، إنهن يملأن الشوارع . .

ـ ولكنك لم تفكرى فى ذلك من قبل . .

ضحكت بسرور فقلت :

ـ إنك قلت لنفسك إنك أجمل منهن فلم يتعلمن ولا تتعلمين . . هه؟

جعلت تنظر إلىّ بابتهاج دون أن تنبس فقلت :

ـ ولكن ليس ذاك بكل شىء . .

ـ ماذا هناك أيضا؟

ترددت لحظة ثم قلت :

ـ هناك صاحبنا سرحان البحيرى . .

تورد وجهها وغضت البصر فقلت بإشفاق:

ـ أما التعليم ففكرة مدهشة وأما سرحان. .

ترددت فى الإفصاح فتساءلت:

ـ ماله؟

ـ هؤلاء الشبان طموحون!

قالت بامتعاض:

ـ كلنا أبناء حواء وآدم. .

هذا حق ولكن. .

ـ الدنيا تغيرت، أليس كذلك؟

ـ الدنيا تغيرت ولكنهم لم يتغيروا بعد. .

امتلأت نظرتها بالتفكير وهى تقول:

ـ بعد الكتابة والقراءة سأتعلم مهنة كالخياطة.

خفت إن تكلمت أكثر أن أجرح مشاعرها فسألتها:

ـ هل يحبك حقا؟

ـ فأحنت رأسها بالإيجاب فقلت:

ـ ليحفظك الله ويسعدك.

ورحت أساعدها من حين لآخر وهى تدق باب المجهول، عالم الكلمات والأعداد. وعلم الجميع بقرارها وناقشوه طويلا ولكن لم يسخر منها أحد. على الأقل أمامها. كان الجميع يميلون إليها فيما أعتقد. كل على طريقته. وتابع طلبة مرزوق القضية فلم يخف عليه شىءمن أسرارها، ثم قال لى:

ـ ما هو الحل السعيد لمشكلة زهرة؟. . أن ينزل عندنا يوما منتج سينمائى. ما رأيك؟

فلعنت رأيه.

* * *

وذات أصيل ذهبت كالعادة إلى مجلسى بالمدخل فرأيت زهرة جالسة إلى جانب فتاة غريبة على الكنبة. من لمحة أدركت أنها المدرسة. فتاة ريفية وجميلة. وقد تكرمت بالحضور إليها بسبب وجود زوار فى شقتها. وكالعادة كانت المدام قد استجوبتها وعرفت عنها بعض ما تتطلع إليه فأخبرت بأنها تقيم مع والديها وأن لها أخا يعمل فى السعودية. وتكرر حضور المدرسة للبنسيون، وكانت تثنى على اجتهاد تلميذتها.

ولاحظت مرة ـ وزهرة قادمة بقهوة العصر ـ أنها متجهمة فسألتها عن الصحة فأجابتنى بفتور:

ـ كالبغل!

ـ والدروس؟

ـ لا شكوى من هذه الناحية.

فقلت بقلق:

ـ لم يبق إلا صديقنا البحيرى!

وصمتنا بعض الوقت كأنما لنصغى إلى صوت المطر المنهمر، ثم قلت:

ـ لا أطيق أن أراك متألمة.

فقالت بامتنان:

ـ إنى أصدقك.

ـ ماذا حدث؟

ـ الحظ يعاندنى.

ـ قلت لك من أول يوم..

ـ ليس الأمر بالسهولة التى تتصورها!

ثم نظرت إلىّ بكآبة وقالت بانفعال :

ـ ما العمل؟ إنى أحبه، ما العمل؟

ـ هل تبين لك كذبه؟

ـ كلا، إنه يحبنى أيضا، ولكنه يتكلم دائما عن العقبات.

ـ لكن الرجل إذا أحب.

فقالت بإصرار :

ـ إنه يحبنى ولكنه دائما يتكلم عن العقبات.

فقلت بحنان :

ـ ولكن ما ذنبك أنت؟. يجب أن تعرفى لنفسك طريقا.

فمضت وهى تقول :

ـ ما قيمة أن أعرف ما يجب عمله مادمت لاأستطيعه!

* * *

ـ يا سعادة الباشا كيف هان عليك.

فقاطعنى قائلا :

ـ كان علىّ أن أختار بين أمرين، فإما الانتفاع ببنك التسليف الزراعى مع إعلان خروجى على الوفد وإما الخراب.

ـ ولكن الكثيرين فضلوا الخراب!

فصاح غاضبا :

ـ صه.. إنك لا تملك قيراطا ولاابن لك ولا بنت، ولقد ضربت واعتقلت فى قشلاق قصر النيل، ولكن ابنتى أعز علىّ من الدنيا والآخرة!

* * *

قالت لى المدام هامسة :

ـ تعال معى، أهل زهرة حضروا.

مضيت معها إلى المدخل فرأيت شقيقة زهرة وزوجها جالسين والفتاة واقفة فى وسط المكان تنظر إليهما فى صلابة وعناد. وكان الرجل يقول :

ـ حسن أن تذهبى إلى المدام ولكن عار أن تهربى.

وقالت أختها :

ـ فضحتينا يا زهرة فى الزيادية كلها.

فقالت زهرة بغضب وحدة :

ـ أنا حرة ولا شأن لأحد بى.

ـ لو كان جدك يستطيع السفر!

ـ لا أحد لى بعد أبى.

ـ يا للعيب.. هل كفر لأنه أراد أن يزوجك من رجل مستور؟

ـ أراد أن يبيعنى.

ـ الله يسامحك.. قومى معنا..

ـ لن أرجع ولو رجع الأموات.

وهمّ زوج أختها بالكلام ولكنها بادرته :

ـ لا شأن لك بى!

وأشارت إلى المدام قائلة :

ـ إنى أعمل هنا كما يعمل الشرفاء وأعيش من عرق جبينى!

خيل إلى أنهما يودان أن يصارحاها برأيهما فى المدام والبنسيون وتمثال العذراء ولكنهما لا يستطيعان. وقالت المدام :

ـ زهرة ابنة رجل كنت أحترمه، إنى أعاملها كابنة، فأهلا بها إن أرادت البقاء.

ونظرت المدام إلىّ كأنما تستحثنى على الكلام فقلت:

ـ فكرى يا زهرة واختارى!

لكنها قالت بإصرار:

ـ لن أرجع ولو رجع الأموات!

انتهت الرحلة بالفشل فمضى الرجل بزوجته وهو يقول لزهرة:

ـ القتل لك حق وعدل.

وجعلنا نناقش الموضوع، ونقول ونعيد، حتى قالت لى زهرة:

ـ خبرنى عن رأيك صراحة؟

فقلت:

ـ أتمنى أن ترجعى إلى قريتك!

ـ أرجع للهوان؟

ـ قلت « أتمنى» يا زهرة.. أقصد أن ترجعى وأن يكون فى الرجوع سعادتك.

ـ إنى أحب الأرض والقرية ولكنى لا أحب الشقاء!

وانتهزت فرصة ذهاب المدام إلى بعض شأنها فقالت بحزن:

ـ هنا الحب والتعليم والنظافة والأمل!

أدركت أشجانها. لقد هاجرت مثلها مع والدى من القرية وأحببت القرية مثلها ولكنى ضقت بالعيش فيها. وعلمت نفسى كما تود أن تفعل. ورميت مثلها بتهمة باطلة فقال أقوام إنى أستحق القتل. ومثلها فتننى الحب والتعليم والنظافة والأمل.

الله أسأل أن يجعل حظك أسعد من حظى يا زهرة.

دنا الخريف من نهايته ولكن جو الإسكندرية يسير على هواه. وقد أنعمت بركاته علينا بصباح مضيء دافئ فابتهج ميدان الرمل تحت أشعة الشمس الهابطة من سماء صافية الزرقة. ابتسم إلى محمود أبو العباس بائع الجرائد وأنا أقف أمام معرضه الملون بأغلفة المجلات والكتب، ابتسم وقال لى:

ـ سعادة البك؟

ظننت أن ثمة خطأ فى الحساب. نظرت إليه متسائلا وهو قائم أمامى بجسمه الفارع فقال:

ـ سعادتك تقيم فى بنسيون ميرامار؟

أجبت بهزة من رأسى فقال:

ـ لا مؤاخذة، توجد فى البنسيون بنت اسمها زهرة؟

أجبت بانتباه مفاجئ:

ـ نعم.

ـ أين أهلها؟

ـ لكن لماذا تسأل؟

ـ لا مؤاخذة، أريد أن أخطبها.

فكرت قليلا ثم قلت:

ـ أهلها فى الريف وأظنها على خلاف معهم، هل فاتحتها فى الأمر؟

ـ إنها تجيء أحيانا لشراء الجرائد ولكنها لا تشجعنى على الكلام.

وزار المدام مساء اليوم نفسه ليطلب يد زهرة. وخاطبت المدام زهرة فى الأمر بعد ذهابه. ولكنها رفضته بلا تردد ولا تفكير. ولما أعادت على مسمعنا ـ أنا وطلبة ـ الحكاية قال الرجل:

ـ لقد أفسدتها يا ماريانا، نظفتها ولبستها ملابسك، وهاهى تختلط

بالشبان الممتازين فتلعب بعقولها الأحلام، وليس لذلك كله إلا نهاية محتومة واحدة!

وفي خلوتنا اليومية - عندما جاءتني بقهوة العصر - تحادثنا في الموضوع. قلت لها:

- كان يجب أن تفكري في الأمر.

فقالت محتجة:

- ولكنك تعرف كل شيء!

- لا ضرر ألبتة من التفكير والمشاورة.

فقالت معاتبة:

- إنك تراني شيئا حقيرا لا يجوز له أن ينظر إلى فوق!

فلوحت بيدي معترضا وقلت:

- المسألة أنني أراه زوجا كفئا، هذا كل ما هناك.

- سأعود معه إلى مثل حياة القرية التي هربت منها!

لم أرتح إلى حجتها فواصلت حديثها قائلة:

- ومرة سمعته يتكلم مع صاحب له وهو لا يراني فيقول له إن النساء تختلف في الألوان ولكنها تتفق على حقيقة واحدة، فكل امرأة حيوان لطيف بلا عقل ولا دين. والوسيلة الوحيدة التي تجعل منهن حيوانات أليفة هي الحذاء!

نظرت إليّ كالمتحدية ثم تساءلت:

- أمن العيب أن أحب لنفسي حياة كريمة؟

لم أجد ما أقوله. ورغم تظاهري بالأسف فإنني شعرت بإعجاب بها لا يحد. لن أضايقك بنصائح العجائز. لقد كان سعد زغلول يستمع إلى نصائح الشيوخ ولكنه اتبع غالبا آراء الشباب. ليحفظك الله يا زهرة.

* * *

ـ أحداث هامة تقع من حولك وأنت لا تدرى أيها العجوز!

قال طلبة مرزوق ذلك وهو يبتسم ابتسامة خبيثة. كنا نجلس فى المدخل وحدنا ولا أنيس لنا إلا صوت هطول المطر. سألته وأنا أتوقع أنباء سوء:

ـ ماذا هناك؟

ـ دون جوان البحيرة يدبر انقلابا فى الخفاء.

همنى الأمر لصلته بزهرة فسألته عما يعنى فقال:

ـ غير الهدف القديم، وهو يسدد الآن بإحكام نحو هدف جديد!

ـ تكلم بلا تلذذ بالمصائب.

ـ حسن، جاء دور الأستاذة!

ـ المدرسة؟

ـ بالضبط، لمحت نظرات متبادلة وأنا كما تعلم لى خبرة قديمة بهذه اللغة.

ـ يالك من رجل تتجسد له أفكاره الشريرة فى صورة حقائق..

قال وهو يسخر ضاحكا، وشامتا:

ـ بابا عامر.. أدعوك إلى متابعة ألطف دراما فى ميرامار!

عزمت على ألا أصدقه ولكن كدر صفوى القلق. وإذا بحسنى علام يحدثنا فى نفس اليوم عن معركة دارت بين سرحان البحيرى ومحمود أبو العباس بائع الجرائد فى ميدان الرمل. خمنت ما وراء المعركة من أسباب ولكن تخيل تطوراتها كان فوق المستطاع. وقال حسنى:

ـ تبادلا الضرب حتى خلص الناس بينهما.

فسأله طلبة مرزوق:

ـ هل شاهدتهما وهما يتضاربان؟

ـ كلا، علمت بما كان بعد وقوعه بفترة وجيزة.

وتساءلت المدام بإشفاق:

ـ وهل وصل الأمر إلى القسم؟

ـ كلا، انتهى بسيل من السباب والوعيد.

ولم يشر سرحان إلى الواقعة فتجنبنا ذكرها. ورجعت أفكر فيما قال طلبة عن سرحان والمدرسة فاعترانى غم ونكد.

* * *

الوفاء عند الملاح صدف أسعفينى يا دموع العين

واستعدناها مرات ومرات بالتصفيق والهتاف فراح يغنى جنى مطلع الفجر. كنت ليلتها مكتظا بالشباب والقوة والطعام والخمر. والقلب يعانى وحده أسرار الشجن.

حلمت بوفاة أبى.

كنت مستغرقا فى النوم فى الهزيع الأخير من الليل. رأيتهم وهم يحملونه من رواق مسجد أبى العباس حيث أدركته الوفاة ثم يمضون به إلى البيت. بكيت. ودوى فى أذنى صوات أمى. ومضى يدوى حتى فتحت عينى.

يا إلهى ماذا يحدث فى الخارج؟. كالمرة السابقة؟. لقد انقلب بنسيون ميرامار إلى ميدان قتال. ولكن عندما غادرت حجرتى كان كل شىء قد انتهى. ولمحتنى ماريانا فأقبلت نحوى كالمستغيثة فدخلنا الحجرة وهى تهتف:

ـ لا.. لا.. فليذهبوا جميعا إلى الجحيم.

نظرت إليها بعينى المثقلتين بالنوم فقصت علىّ القصة الجديدة. استيقظت على صوت عراك، غادرت حجرتها فوجدت سرحان البحيرى وحسنى علام وهما يتضاربنان.

ـ حسنى علام؟!

ـ نعم، لم لا، يجب أن يأخذ كل نصيبه من الجنون!

فسألتها بامتعاض:

ـ ولكن ما السبب؟

ـ آه، فلنرجع خطوة إلى الوراء، إلى حادثة لم أشهدها لأنى كنت مثلكم مستغرقة فى النوم.

ـ وهى؟

ـ قالت زهرة إن حسنى علام رجع من الخارج سكران فحاول أن..

ـ لا..!

ـ إنى أصدقها يا مسيو عامر.

ـ وأنا أيضا، ولكن حسنى لم يلاحظ عليه أنه..

ـ لا يمكن أن نلاحظ كل شىء. وقد استيقظ سرحان فى الوقت المناسب فكان ما كان.

ـ يا للأسف!

مسحت على عنقها كأنما لتزيل عنه الألم الذى ألمّ بأوتار صوتها من الزعق، ورجعت تقول:

ـ لا.. فليذهبوا إلى الجحيم.

فقلت بامتعاض:

ـ على الأقل يجب أن يذهب حسنى علام.

لم تعلق على قولى، بل ولم تتحمس له، ثم غادرت الحجرة متجهمة.

ولما جاءتنى زهرة عصر اليوم التالى تبادلنا نظرات ذات معنى. غمغمت:

ـ أسفت جدا يا زهرة .

فقالت بسخط :

ـ رجال بلا شهامة .

ـ للحق إن المكان لا يليق بك .

ـ بوسعي دائما أن أدافع عن نفسى ، وقد فعلت .

ـ ولكن ليست هذه بالحياة المطمئنة التى ترجى لبنت طيبةمثلك .

فقالت بعناد :

ـ يوجد أرذال فى كل مكان ، حتى فى القرية!

* * *

غادرت البنسيون عقب أيام حبست فيها داخله لشدة البرد وثورة الرياح وانهلال المطر . كانت أياما فظيعة فانطوينا على أنفسنا فى الحجرات ، ولكن لم يكف الجو عن مهاجمتنا فى قواقعنا ، لطمت المياه النوافذ ، وزلزلت الجدران بصواعق الرعد ، وومض البرق كالنذر ، وصرخت الرياح كعزيف الجان .

ولما غادرت البنسيون استقبلنى الوجه الآخر للإسكندرية ، الذى أفرخ غضبه . وثاب إلى وداعته ، تلقيت الشعاع الذهبى المغسول بامتنان ، نظرت إلى الأمواج وهى تتتابع فى براءة ، على حين نقشت السماء بسحائب صغيرة متهافتة كالأنفاس المترددة . جلست فى التريانون لأشرب القهوة باللبن . كما كنت أجلس فى الأيام الخالية مع الغرابلى باشا والشيخ جاويش ، ومدام لبراسكا الأفرنجية الوحيدة التى جربتها وسط طوفان من الملاءات اللف! . جلس معى طلبة مرزوق بعض الوقت ثم انصرف إلى بهو وندسور لمقابلة صديق قديم . وإذا بسرحان البحيرى يقبل نحوى فيسلم ويجلس ثم يقول :

ـ فرصة سعيدة . دعنى أودعك فقد لا ألقاك وأنا أغادر البنسيون!

سألته بدهشة :

ـ هل عزمت على الرحيل؟

فأجاب بصوته العريض :

ـ نعم، انتهت الإقامة ، ولو ذهبت دون أن أودعك لأسفت على ذلك طيلة العمر!

شكرت له رقته، ولكنى وجدت أسئلة تلح علىّ، غير أنه لم يهبنى فرصة لمزيد من الكلام إذ يلوح بيده لشخص قادم ثم صافحنى وذهب .

وسألت نفسى فى قلق وكآبة : ماذا عن زهرة؟

* * *

قبض بشدة على قضبان قفص الاتهام وهو يستمع إلى النطق بالحكم ثم صاح بأعلى صوته فى المحكمة :

ـ يا فرحتك فىّ يا دنف، يا فرحتك فىّ يا نعيمة يا ضباطى!

* * *

ولما رجعت إلى البنسيون وجدت المدام وطلبة مرزوق وزهرة مجتمعين فى المدخل ، مغلفين بكآبة أبلغ فى إفصاحها عن أى تفجع أو ندب! . جلست صامتا وقد وضح لى ما وددت أن أسأل الآخر عنه .

قالت المدام :

ـ تكشف أخيرا ذاك السرحان عن حقيقته .

تمتمت :

ـ قابلنى منذ ساعات فى التريانون فأخبرنى بأنه سيغادر البنسيون!

ـ الحق أنى طردته!

ثم وهى تشير نحو زهرة :

ـ هاجمها بلا حياء، ثم أعلن بأنه ذاهب ليتزوج من المدرسة!

نظرت إلى طلبة فنظر إلىّ وقال ساخرا :

ـ أخيرا استقر رأيه على الزواج!

وقالت المدام :

ـ لم يرتح له قلبى أبدا، من أول نظرة فهمته، شرير لا أخلاق له!

ثم واصلت حديثها :

ـ أراد مسيو منصور باهى أن يناقشه وإذا بمعركة جديدة تنشب فجأة، عند ذاك صرخت فى وجهه أن يخرج إلى غير رجعة!

نظرت إلى زهرة بإشفاق . أيقنت أن اللعبة قد انتهت، وأن الوغد قد ذهب بلا جزاء. وغضبت غضبة كغضبات الأيام المريرة ثم قلت لزهرة :

ـ إنه وغد لا يستحق أن تأسفى عليه!

ولما خلوت إلى طلبة قلت له :

ـ ليتها تقبل الزواج من محمود أبو العباس!

فقال لى بلهجة من يوقظ محدثه من غفلة :

ـ يا رجل ، أى محمود! ألم تدرك بعد أنها فقدت الشىء الذى لا يعوض؟

قطبت محتجا، وقد أخذت فى الوقت نفسه، فقال ساخرا :

ـ أين عقلك أيها العجوز؟ . . وأين فطنتك؟

ـ ليست زهرة كالأخريات .

ـ الله يرحمك .

وبقدر ما حنقت عليه بقدر ما اجتاحنى الشك . وقلت لنفسى بحزن عميق : يا للخسارة!

وعاد طلبة يقول :

ـ المدام أول من نبهنى ولكنى لم أكن فى حاجة إلى تنبيه!

ـ امرأة سوء!

ـ إنها كما تعلم على استعداد دائما لحمايتها أو لاستغلالها . .

فقلت بغيظ :

ـ لا هذا ولا ذاك ، أقسم على ذلك .

وجاء لقاء العصر حزينا مؤثرا . رجتنى ألا أذكرها بنصائحى القديمة وألا ألوم أو أعتب . تبرأت من ذلك كله وقلت إن عليها أن تواجه مستقبلها بشجاعة هى جديرة بها .

ـ ترى هل يفتر حماسك للتعليم؟

فقالت بتصميم وبلا أدنى ابتهاج :

ـ سأجد مدرسة أخرى!

فهمست :

ـ وإن احتجت إلى أى مساعدة . .

مالت نحوى حتى لثمت منكبى ثم عضت على شفتها لتمنع الدموع . مددت يدى المعروقة المدبوغة حتى مسحت بحنان شعرها الأسود وتمتمت :

ـ ليحفظك الله يا زهرة .

* * *

لزمت حجرتى تلك الليلة مذعنا لإحساس شامل بالإعياء . وأقعدنى التعب بضعة أيام أخر . وجعلت المدام تحثنى على مقاومة الضعف لأشهد ليلة رأس السنة الجديدة . وفى سياق ذلك سألتنى :

ـ نقضيها فى المونسنيير كما يقترح طلبة بك أم نقضيها هنا؟

غمغمت فى فتور :

ـ هنا أفضل يا عزيزتى .

كما احتفلت بها فى صولت وجروبى وألف ليلة وحديقة لبتون . وقد مرت بى عاما وأنا معتقل فى سجن القلعة الحربى .

* * *

وفى صباح اليوم الثالث لاعتكافى اقتحمت المدام غرفتى فى غاية من الانزعاج ثم قالت لاهثة :

ـ أما سمعت بالخبر؟

ثم وهى تغوص فى المقعد الكبير :

ـ قتل سرحان البحيرى !

هتفت :

ـ هه؟!

ـ وجد قتيلا فى طريق البالما !

ولحق بها طلبة مرزوق قابضا بعصبية على الجريدة وهو يقول :

ـ خبر مزعج جدا ، وقد يجر علينا متاعب لم تكن فى الحسبان !

وجعلنا نتبادل النظر والرأى دون جدوى . استعرضنا كافة الاحتمالات ، فكرنا فى خطيبته الأولى ، حسنى علام ، منصور باهى ، محمود أبو العباس ، حتى قالت المدام :

ـ قد يكون القاتل شخصا آخر لا يخطر لنا ببال .

فقلت :

ـ لم لا ، نحن لا نكاد نعرف عن الشاب شيئا ، لا عن حياته ولا علاقاته ولا ظروفه . .

فقالت المدام بقلق :

ـ كم أتمنى أن يكتشفوا القاتل عاجلا وأن يكون بعيدا عنا كل البعد ، وألا أرى وجه رجل من البوليس . .

فأيدها طلبة مرزوق قائلا :

ـ كم أتمنى ذلك أيضا !

وسألت عن زهرة فتنهدت المدام قائلة :

ـ صعقت المسكينة ، صعقت بكل معنى الكلمة . .

قلت بحزن :

ـ ألا يمكن أن أراها؟

ـ إنها منهارة تماما فى حجرتها وقد أغلقت الباب .

وعدنا نتبادل الرأى والنظر دون جدوى .

أخيرا أغمضت عينى فتردد فى خاطرى :

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

٢

حسنى عـــلام

فريكيكو . . لا تلمنى!

وجه البحر أسود محتقن بزرقة . يتميز غيظًا . يكظم غيظه . تتلاطم أمواجه فى اختناق . يغلى بغضب أبدى لا متنفس له .

ثورة . لم لا . كى تؤدبكم وتفقركم وتمرغ أنوفكم فى التراب . يا سلالة الجوارى . إنى منكم وهو قضاء لاحيلة لى فيه . وقد عرفتنى ذات العين الزرقاء بقولها «غير مثقف، والمائة الفدان على كف عفريت» . وقبعت تنتظر ثوراً آخر .

الكورنيش لا يرى من شرفة سيسل . إن لم أنحن فوق السور فلا سبيل لرؤيته . البحر يمتد مباشرة كأنما أراه من سفينة . وهو يترامى حتى قلعة قايتباى محصوراً بين سياج الكورنيش وذراع حجرى يضرب فى الماء كالغول . بينهما يختنق البحر . يتلاطم موجه فى تثاقل وهو كظيم . بوجه أسود ضارب للزرقة منذر بالغضب . يضطرم بباطن محشو بأسرار الموت ونفاياته .

أما الغرفة فتنطبع بسحنة كلاسيكية . تذكرنى بسراى آل علام بطنطا . لذلك أضيق بها . وقد غرب مجد الريف وجاء عصر الشهادات يحملها أبناء السفلة . حسن، لتكن ثورة . ولتدككم دكًا . إنى أتبرأ منكم . سأنشىء عملاً . أتبرأ منكم يا فتات العصور البالية .

فريكيكو . . لا تلمنى .

ذات يوم ـ ومحمد النوبى يقدم لى الإفطار فى الحجرة ـ خطر لى أن أقول له :

ـ كم أشعر بالضجر فى فندقكم العظيم !

عادة قديمة لى أن أقيم علاقات طيبة مع خدم الفنادق التى أنزل بها بالمؤانسة والسخاء، لحين الحاجة إليهم ! . وإذا بالرجل يسألنى :

ـ هل تقيم فى الإسكندرية مدة طويلة؟

ـ جدًا !

ـ أليست الإقامة فى بنسيون معقول أفضل لك فى تلك الحال؟

نظرت إليه مستطلعًا فقال :

ـ هناك بنسيون نظيف ومعقول . ستجد فيه تسلية أكثر ونفقات أقل، ولكن ليكن ذلك سرًا بيننا !

ظريف ومفيد وخائن . يخدم فى جهة ويعمل لحساب أخرى ككثيرين من مواطنى الأعزاء . وحق أن للبنسيون جوًا عائليًا حميمًا . وهو أنسب لمن يفكر فى مشروع جديد . وهل ساقنى إلى سيسل إلا عادة قديمة متأصلة وكبرياء لم يخفف من غلوائه بعد؟ !

* * *

فتحت شراعة الباب عن وجه جميل . أجمل مما يليق بخادمة . أجمل مما يليق بسيدة . يا لها من شابة مليحة . وسوف تعشقنى من النظرة الأولى .

ـ نعم؟

فلاحة؟ . عجبًا . ليدفن سيسل فى جوف الأمواج السوداء .

ـ من طرف محمد كامل بفندق سيسل .

أجلستنى فى المدخل ومضت إلى الداخل . جعلت أنظر إلى الصور

كمقدمة لمعرفة أصحابها. من هذا الضابط الإنجليزى؟. ومن الحسناء المتكئة على ظهر الكرسى؟. جميلة ومثيرة. ولكنها قديمة!. موضة الفستان تقطع بأنها كانت معاصرة للعذراء!

وجاءت عجوز مضيئة مذهبة. صاحبة البنسيون بلا ريب. الطراز الكامل لقوادة إفرنجية متقاعدة. أو غير متقاعدة كما أرجو. وتلك صورتها قبل أن يخربها الزمن. ها هى الأمور تتضح. لقد ترجم محمد كامل شكواى من الضجر بلغته الخاصة. وخيراً فعل. وكلما توفر الترفيه تهيأ الجو للتفكير فى المشروعات الجديدة.

ـ حجرة خالية يا مدام.

ـ كنت تقيم فى سيسل؟

بهرها ذلك بلا شك. تمنيت أن ترجع إلى الوراء أربعين عامًا. وأجبت بالإيجاب فسألت:

ـ كم يومًا؟

ـ على الأقل شهر وقد يمتد عامًا.

ـ إلا أشهر الصيف فلا بد من اتفاق خاص.

ـ ليكن..

ـ طالب؟

ـ من الأعيان.

جاءت بالسجل وهى تسألنى عن اسمى فقلت:

ـ حسنى علام.

غير مثقف وذو مائة فدان على كف عفريت وسعيد الحظ لأنه لم يعرف الحب الذى يتغنى به المطربون.

* * *

حجرة مقبولة بنفسجية الجدران. ها هو البحر يترامى فى زرقة صافية حتى الأفق. ونسائم الخريف تلاعب الستائر، وفى السماء قطعان مبعثرة من السحائب. التفت نحو الفلاحة وهى تفرش السرير بالملاءات والأغطية. جسمها قوى رشيق مفصل المحاسن، وإن صدق ظنى فهى لم تحبل، ولم تجهض بعد! . على أى حال من المستحسن أن أتأنى حتى أحيط بأسرار المكان.

ـ اسمك يا حلوة؟

أجابت بوجه جاد:

ـ زهرة.

ـ عاش من سمى.

شكرتنى برأسها وبلا ابتسامة.

ـ يوجد فى البنسيون نزلاء آخرون؟

ـ رجلان وشاب مثل حضرتك..

ـ وأى اسم أختار لك للدلاعة؟

أجابت بأدب ودون تشجيع:

ـ اسمى زهرة.

جادة أكثر مما يليق. سوف تكون زينة أى شقة أستأجرها فى المستقبل. وهى أجمل من قريبتى الحمقاء التى قررت أن تختار عريسها على ضوء الميثاق.

فريكيكو.. لا تلمنى..

* * *

ـ أأنت جاد فيما تقول؟

ـ طبعًا يا عزيزتى..

ـ ولكنك فى رأيى لا تعرف الحب!

ـ أريد أن أتزوج كما ترين . .

ـ يخيل إلى أنك لا يمكن أن تحب.

ـ أريد أن أتزوج منك، ألا يعنى هذا أننى أحبك؟

ثم قلت وأنا أراوغ الغيظ والغضب:

ـ وإنى كفء للزواج، أليس كذلك؟

بعد تردد قالت:

ـ ما قيمة الأرض الآن؟

حملت نفسى مسئولية الموقف المهين ثم مضيت وأنا أقول:

ـ سأتركك لتفكرى فى هدوء . .

* * *

على مائدة الإفطار تم التعارف بينى وبين النزلاء الآخرين. عامر وجدى صحفى متقاعد فى الثمانين على أقل تقدير، نحيل مع ميل إلى الطول، وذو صحة يحسد عليها، ووجهه المتجعد الغائر العينين البارز العظام لم يدع للموت شيئا يلتهمه. كرهت منظره، وعجبت كيف يبقى حيًا على حين تهلك أجيال من الشباب كل يوم.

طلبة مرزوق لم يكن بالغريب علىّ. وقد علق عمى ذات يوم بعطف على وضعه تحت الحراسة، ولكنى لم أشر إلى ذلك بطبيعة الحال. كنا ومازلنا نتابع أخبار الحراسة بشغف شهوانى مخيف كأفلام الرعب. وقد سألنى:

ـ من آل علام بطنطا؟

أجبت بالإيجاب. وبسرور خفى . فقال:

ـ عرفت والدك. كان مزارعًا ممتازًا . .

ثم التفت إلى عامر وجدى ـ وكان يغادر المائدة ـ وقال ضاحكًا :

ـ ولم يقع رحمه الله طويلاً تحت تأثير المهرجين!

ولما أدرك أننى لم أفهم ما يعنيه قال :

ـ أقصد الوفديين .

فقلت بعدم اكتراث :

ـ مدى علمى أنه كان وفديًا عندما كانت البلاد كلها وفدية . .

أمن على قولى ثم عاد يسألنى :

ـ أظن لك إخوة وأخوات؟

ـ أخى قنصل بإيطاليا وأختى زوجة لسفيرنا فى الحبشة!

فتحرك شدقاه حركة راقصة ثم سألنى :

ـ وأنت؟

كرهته فى تلك اللحظة حتى وددت له الموت غرقًا أو حرقًا، ولكننى أجبت باستهانة :

ـ لا شىء . .

ـ ألا تزرع أرضك؟

ـ إنها مؤجرة كما تعلم ولكنى أفكر فى إنشاء عمل جديد . .

كان يتابعنا سرحان البحيرى ـ النزيل الثالث ووكيل حسابات شركة الإسكندرية للغزل ـ وكذلك المدام العجوز . وسألنى سرحان :

ـ أى عمل؟

ـ لم أستقر على رأى بعد .

ـ أليس الأضمن أن تبحث لك عن وظيفة؟

كرهته فى تلك اللحظة هو الآخر . به لهجة ريفية خفيفة لصقت به كرائحة طعام فى إناء لم يحسن غسله . وهو حيوان لا يسع مرفت أن

تصمه بأنه غير متعلم أو غير مثقف . وإذا سولت له نفسه أن يسألنى عن شهادتى فسأقذفه بقدح الشاى .

* * *

ـ من أين جاءك هذا الحماس للثورة؟

ـ هذا ما أعتقده يا عمى . .

ـ لا أصدقك . .

ـ بل صدقنى بلا تردد .

ضحك ضحكة فاترة وقال :

ـ الظاهر أن اعتذار مرفت قد أطاح بعقلك!

فقلت باستياء :

ـ الزواج كان فكرة عابرة!

فقال باستياء أيضًا :

ـ رحم الله والدك ، أورثك عناده دون حكمته!

* * *

وكم أغرانى الغيظ بالهجوم على الثورة ممثلة فى شخص سرحان المنتفع بها بلا شك ولكنى لم أستسلم للتهور . وسألتنى المدام العجوز :

ـ لم لا تحدثنا عن مشروعك؟

ـ لم أجده بعد .

ـ إذن فأنت غنى؟

ابتسمت بثقة دون أن أجيب فراحت تنظر إلىّ باهتمام .

* * *

غادرت البنسيون أنا وسرحان فحملنا المصعد معًا . جعل ينظر إلىّ بعينين باسمتين داعيتين إلى مزيد من التعارف فخف سخطى عليه درجات . وقال وكأنه يصحح خطأه دون شعور منه :

ـ الوظيفة اليوم أضمن مما عداها ولكن العمل الحر إذا اختير بحكمة . .

تركنا المصعد قبل أن يتم جملته ولكن لهجته المؤيدة أغنت عن الكلام . وافترقنا فمضى نحو محطة الترام ، ومضيت نحو الجراج . مررت أمام مقهى الميرامار القائم أسفل العمارة فتذكرت جلوسى به مع عمى فى الأيام الخالية ، وقبل وقوع الكارثة . كان يذهب إليه فى الأصائل ليدخن النارجيلة ، فيجلس متلفعًا بعباءته الخفيفة كملك متنكر فى ثياب العامة ، يتوسط مجموعة من الشيوخ والنواب والأعيان ! . أجل تلك أيام خلت ، ولكنه يستحق أكثر مما حاق به .

استقللت سيارتى الفورد بلا هدف معين سوى رغبتى الأبدية فى التجوال والسرعة . وقلت لنفسى : إنه من المستحسن ألا أنبذ سرحان البحيرى فقد أجد نفعًا فى خبرته ومعارفه بالمدينة . وانطلقت بالسيارة إلى الأزاريطة فالشاطبى فالإبراهيمية إلخ ، فى سرعة خاطفة استجابت لها أعصابى المتوثبة . اخترقت هواء نشيطًا لطيفًا منعشًا تحت سماء ظللها الغمام . وبدا الكورنيش المحفوف بزرقة البحر نظيفًا نقيًا ، قد تطهر من عرق المصيفين وصخبهم ، وقلت بتصميم لن أعود إليك يا طنطا إلا لأقبض نقودًا أو لأبيع أرضًا ، فلتذهبى بذكرياتك إلى الجحيم .

ملت إلى مستعمرة السيوف ثم مرقت إلى شارع أبى قير ، سيد الشوارع ، فازددت سرعة وطربًا وتحديًا . وتساءلت بأسى أين الأوروبيات . . أين الجمال . . أين سبائك الذهب . وحضرت الحفلة الصباحية بسينما مترو . غازلت فتاة فى الاستراحة أمام البوفيه . تناولنا الغداء فى عمر الخيام . نمنا القيلولة معًا فى مسكنها بالإبراهيمية . عدت إلى البنسيون عصرًا وقد نسيت اسمها تمامًا . كان المدخل والصالة خاليين فأخذت دشًا ، تحت الماء تذكرت الفلاحة المليحة . ولما عدت إلى

حجرتى طلبت قدح شاى لأراها من جديد. وقدمت لها قطعة شيكولاتة فترددت ولكنى ألححت عليها قائلاً:

ـ كيف لا ونحن أسرة واحدة!

وجعلت أنظر إليها بسرور وهى تنظر إلى بلا ارتباك أو تنظر إلى الأرض. خائفة؟.. ماكرة؟.

ـ زهرة، هل يوجد مثلك كثيرات فى الريف؟

قالت متجاهلة مقصدى:

ـ لا عد لهن ولا حصر.

ـ ولكن كم منهن جميلة مثلك؟!

فشكرت لى هدية الشيكولاتة وذهبت. خائفة؟. ماكرة؟. على أى حال لست بحاجة إليها الآن. ومن حقها شىء من التمنع والدلال. ومن حقها كذلك أن أعترف بأنها فائقة الجمال.

فريكيكو.. لا تلمنى.

* * *

نظرت طويلاً إلى صورة المدام القديمة حتى ضحكت متسائلة:

ـ تعجبك؟

وقصت على قصة زواجها الأول، ثم الثانى.

ـ كيف ترانى الآن؟

فقلت وأنا أرى عروق معصمها النافرة وبشرتها المتكائفة كقشرة السمكة:

ـ جميلة كما كنت!

فقالت بتسليم:

ـ المرض كبرنى قبل الأوان.

ثم بلا تمهيد:

ـ ولكن هل من الحكمة أن تجازف بنقودك فى مشروع جديد؟

ـ لا بأس بذلك أبدًا.

ـ وإذا استولت عليه الحكومة؟

ـ توجد أعمال مضمونة؟

خمنت أنها تتردد فى زحزحة البلاطة فقلت معابثًا:

ـ ما أجمل أن نشترك معًا فى عمل مثمر!

تظاهرت بالدهشة وقالت ضاحكة:

ـ أنا! . . أوه. . البنسيون لا يجىء إلا بالكفاف!

وانضم إلى مجلسنا قلاوون الصحافة. جاء متدثرًا فى روب سميك. ووجدته بشوشًا رغم شيخوخته الكريهة. وقال كمن يعلق على حالى وحاله:

ـ الشباب يبحث عن المغامرة، الشيخوخة تنشد السلامة.

تمنيت له صحة طيبة فسألنى:

ـ أجئت الإسكندرية من أجل المشروع؟

فأجبته بالإيجاب فعاد يسأل:

ـ وهل أنت جاد فى سعيك؟

ـ لقد ضقت بالفراغ.

فردد قائلاً:

إن الشباب والفراغ والجدة   مفسدة للمرء أى مفسدة

ولكنى أكره الشعر كما أكره سيرة الشهادات. وشعرت باستعلاء فارس تركمانى يعيش بين رعاع. حق قد صقل الحظ بعضهم. نفس الحظ الذى ينفخ شمعتنا لتنطفئ. وقلت لنفسى: إن الثورة ظاهرة غريبة مثل الكوارث الطبيعية. وإننى كمن يستقل سيارة فارغة البطارية.

وإذا بشاب جديد يظهر من وراء البارفان متجهًا نحو الباب الخارجى فدعته المدام للجلوس وقدمته إلينا قائلة :

ـ مسيو منصور باهى .

مذيع فى محطة الإسكندرية . شهادة عالية جديدة ، ووجه وسيم دقيق ولكنه خلو من الرجولة . وهو أيضا من الرعاع المصقولين . وفى تحفظه ما يغرى بلكمة . وقد سألت المدام بعد ذهابه :

ـ نزيل عابر أم مقيم؟

فقالت بتيه :

ـ مقيم يا عزيزى ، أنا لا ينزل عندى العابرون!

ورجعت زهرة من الخارج بحافظة من البلاستيك مثقلة بالبقالة . تابعتها وهى تمضى بنهم . البلد مكتظة بالنسوان ولكن البنت مثيرة لغرائزى .

فريكيكو . . لا تلمنى .

* * *

ـ أخيرا وقعت فى الحب؟

ـ طانط . . لا حب ولا هيام . . لكنها فتاة ممتازة . . ومن لحمى ودمى . . وأنا أريد أن أتزوج .

ـ على أى حال فأنت شاب تتمناك أى فتاة .

* * *

ليلة أم كلثوم متوجة حتى فى بنسيون ميرامار . أكلنا وشربنا وضحكنا . خضنا فى كل موضوع حتى فى السياسة . لكن الخمر نفسها لم تستطع أن تقهر عاطفة الجوف . صال عامر وجدى وجال فحكى على الربابة أساطير مجد لا شاهد عليها إلا ضميره . صمم الرجل الخرب على إقناعنا بأنه بطل قديم ، وإذن فلا يوجد إنسان عادى فى هذه الدنيا

اللعينة. كذلك لا يوجد فرد واحد غير متحمس للثورة. حتى طلبة مرزوق، حتى حضرتى. علينا بالحذر. سرحان منتفع ومنصور غالبًا مرشد، حتى العجوز فمن يدرى، والمدام نفسها لا يبعد أن تكلفها جهات الأمن بنوع من المراقبة. ولما جاءتنى زهرة بزجاجة صودا سألتها:

ـ وأنت يا زهرة.. تحبين الثورة؟

فقالت المدام:

ـ أوه.. انظر إلى الصورة المعلقة فى حجرتها!

هل أعتبر ذلك إذنًا بالتسلل إلى الحجرة!. ورغم أن الويسكى صهرنا فى بوتقة ألفة حميمة إلا أننى شعرت بأنها عابرة، وستظل عابرة. لن تقوم صداقة حقيقية بينى وبين سرحان أو منصور. مودة عابرة ستمضى كما مضت البنت التى التقطتها من بوفيه مترو. وقلت لنفسى إن علىّ أن أجد عملاً أفرغ فيه طاقتى وأملأ به وقتى وإلا تعرضت لأن أرتكب حماقة خرقاء أو جريمة قتل تناسب المقام. ومن المسلم به أننى سأبقى عازبًا إلى الأبد كيلا أرتطم بلفظة «لا» مرة أخرى، ولأنه لن توجد الفتاة الكفء لى فى مجتمعنا النامى. يمكن بعد ذلك أن أعتبر جميع النساء حريمًا متنقلاً لمزاجى، إلى خادمة ممتازة لملء فراغ شقتى المستقبلة. خادمة مثل زهرة. بل هى زهرة بالذات. وسوف ترحب بذلك بكل امتنان. ستمارس مهنة ست البيت مع الإعفاء من متاعب الحمل والولادة والتربية. وهى جميلة، وسوف تروضها حقارة أصلها على تحمل نزواتى وغرامياتى اللامتناهية. وإذن فالحياة مقبولة رغم كل شىء، وواعدة بمسرات لا بأس بها.

وبالغ سرحان فى حكى النوادر حتى سقطت قلوبنا من الضحك. ومنصور قد ينفجر ضاحكًا ثم سرعان ما يتقهقر إلى قوقعته.

* * *

اسمعوا . . اقرءوا . . هذا حكم بالإعدام . . هل يقف الإنجليز مكتوفى الأيدى حتى تجتاحنا الشيوعية!

* * *

بدأ الغناء. بدأ السماع. كالعادة شملنى توتر. أجل إنى أستطيع أن أتابع مقطعًا أو مقطعين ثم يدركنى التشتت والملل. هاهم يهيمون فى الطرب، وها أنا أغرق فى وحدة. والذى أدهشنى حقًا أن المدام تحب أم كلثوم كالآخرين. . ولعلها لاحظت دهشتى فقالت:

ـ سمعتها عمرًا طويلاً.

وراح طلبة مرزوق يستمع بعمق، ثم مال إلى أذنى هامسًا:

ـ من نعم الله أنهم لم يصادروا أذنى!

أما قلاوون فقد أغمض عينيه وراح يسمع أو راح فى سبات. استرقت النظر إلى زهرة فوق مقعدها عند البرافان. جميلة حقًا ولكن هل تسمع؟ فيم تفكر؟ أى أمل يراودها؟ هل تحيرها الحياة كما تحيرنا؟. مضت بغتة إلى الداخل والجميع بالطرب سكارى، فقمت إلى الحمام لألتقى بها فى الطرقة. داعبت ضفيرها وهمست:

ـ لا شىء أجمل من الطرب إلا وجهك.

جفلت فى صلابة فتقدمت منها لأضمها إلى صدرى ولكنى توقفت أمام نظرة باردة منذرة.

ـ طال انتظارى يا زهرة!

تراجعت بخفة ثم ذهبت إلى مقعدها. حسن. فى سراى علام بطنطا عشرات من أمثالك ألا تفهمين؟. أم ترين ثقافتى دون الكفاية يا روث الجاموسة؟. رجعت إلى مجلسى. وبتأوهات مفتعلة إعجابا بغناء لا أتابعه داريت غيظى. ثم وثبت بى رغبة ملحة فى الجهر برأيى لأكون صادقًا مع نفسى ولو مرة واحدة فى السهرة الطويلة، ولكنى لم أفعل.

وفى الاستراحة انتهزت فرصة التفرق المؤقت للمجتمعين فغادرت البنسيون.

انطلقت بالسيارة إلى كليوباطرة. كان الجو باردًا عاصفًا ولكننى كنت مشتعلاً بحرارة الخمر. قصدت مسكن قوادة ملطية كنت أتردد عليها فى ليالى الصيف. وقد دهشت لحضورى بعد انتصاف الليل وفى ذلك الوقت الموحش المقفر من العام. وقالت لى:

ـ لا أحد فى البيت سواى، ولا أستطيع أن أدعو واحدة الآن.

وقفت أمامى فى قميص النوم، فى الخمسين أو أكثر، بدينة مترهلة، لا تخلو من مسحة أنثوية، وثمة زغب يعلو شفتها كالشارب. دفعتها إلى حجرتها وهى تقول بدهشة:

ـ ما هذا!.. لست مستعدة.

فقلت ضاحكًا:

ـ لا أهمية لذلك، ولا أهمية لشىء.

ثم أمضينا ساعة أخرى فى ثرثرة حتى سألتنى عما جاء بى إلى الإسكندرية. ولما حدثتها عن هدفى قالت:

ـ إنهم الآن يصفون أعمالهم ويذهبون.

فقلت لها وأنا أتثاءب:

ـ لن أنشئ شركة ولا مصنعًا.

ـ إذن فابحث عن خواجة مناسب لتحل محله.

ـ فكرة لا بأس بها ولكن علىّ أن أدرس كل شىء.

وفى طريق العودة هطل المطر بشدة. رأيت طريقى بصعوبة رغم نشاط ماسحة المطر. وقلت لنفسى بغضب إن الوقت يتبدد سدى!

* * *

جميلة . . رغم رائحة المطبخ جميلة .

ـ قطعتان من السكر من فضلك .

دعوتها بذلك لإذابة السكر فى الشاى ، وللبقاء دقيقة .

ـ كنت جافة معى يا زهرة .

ـ كلا ، ولكنك جاوزت الحدود .

ـ أردت أن أعرب لك عن مشاعرى .

فقالت بصراحة حادة :

ـ إنى هنا للعمل وحده .

ـ هذا أمر مفروغ منه . .

ـ الظاهر أنك لا تصدقه . .

ـ اخطأت فهمى يا زهرة!

ـ إنك سيد طيب فكن طيبًا معى . .

وذهبت فطاردها صوتى قائلاً :

ـ سأحبك إلى الأبد!

* * *

هلم معى إلى رحلة غريبة . يوم رهيب ، زجر وتأنيب من أخى ، تأنيب من عمى ، المدرسة المدرسة ، بنا إلى الطريق الزراعى ، رحلة طويلة وغريبة ، شمالاً وجنوبًا ، ليلاً ونهارًا ، عند كل بلدة نتزود بالطعام والشراب ، لم أعد قاصرًا . .

* * *

إنى رأيتكما معًا .

فى الطرقة أمام الحمام رأيتكما معا . إذن فهو ذلك السرحان . قرص خدك بحنان . لم يرتفع رأسك فى غضب . وجهك الجميل ابتسم وشع

منه نور أسمر. وتحركت ضفيرتك فى دلال كالحال فى حقول الذرة. سبقنى الفلاح بأيام. لا ضير من ذلك ألبتة إذا روعيت العدالة فى التوزيع. ولو يكن لى يوم وله يومان.

* * *

ضحكت طويلاً وأنا أستقل الفورد. وهتفت:

فريكيكو.. لا تلمنى.

* * *

أوصلت طلبة مرزوق بالسيارة إلى التريانون فدعانى للجلوس معه. مررنا فى طريقنا إلى مجلسنا بسرحان البحيرى وهو ينفرد بشخص آخر فتبادلنا التحية. سألنى طلبة كيف أمضى وقتى فأجبته بأننى أتجول بالسيارة وأفكر فى المشروع الجديد. سألنى:

- ألك خبرة فى نشاط معين؟

أجبت بالنفى، فقال:

- لا تلق بنقودك فى بئر.

- ولكننى مصمم..

- تزوج لتتعلم الحكمة!

فقلت وأنا أكظم غيظى متورمًا:

- إننى مصمم على العزوبة والمشروع.

أشار صوب سرحان البحيرى وقال:

- ولد ذكى..

فسألته باهتمام:

- أعرفت عنه شيئًا؟

- ثمة صديق قديم على صلة بالشركة يصفونه هناك بأنه شاب ثورى، وفى هذا الكفاية..

ـ أتظنه مخلصًا؟

ـ نحن نعيش فى غابة يتعارك وحوشها على أسلابنا . .

داخلنى ارتياح خفى فمضى يقول :

ـ ما تحت البدلة إلا مجنون بالترف!

فقلت بتسليم وأنا مطمئن إلى وحدتنا :

ـ ولكن ثمة إصلاحات لا يمكن إنكارها؟

حرك شدقيه حركة غريبة وقال :

ـ قصد بها أناس لم يرتقوا بعد إلى درجة الوعى . وهم ـ مثلنا ـ تحت رحمة البدل .

ولما آن لى أن أرجع إلى البنسيون لحق بى سرحان فى الخارج فأركبته معى فى السيارة . كأنما خلق اللعين لكى يألف ويؤلف . ورغم ازدرائى له فإنى أبقى عليه لعلى أنتفع به فى وقت الحاجة . وقد لكزته بكوعى وأنا أقول ضاحكًا :

ـ حلال عليك يا عم . . !

نظر إلى باسمًا ومستطلعًا فقلت :

ـ زهرة!

رفع حاجبيه الكثيفين ولكنه أرخى عينيه فى تسليم ، فقلت :

ـ إنك فلاح كريم فلا تبخل علىّ . .

فقال بوجوم :

ـ الحق أنى لا أفهمك . .

ضحكت ساخرًا وقلت :

ـ سأكون صريحًا معك كما يجدر بالأصحاب ، أتعطيها نقودًا أم تعطى المدام؟

فقال بإنكار:

ـ لا . . لا . . ليس الأمر كما تتصور . .

ـ إذن فكيف أتصوره على حقيقته؟

ـ إنها فلاحة طيبة، ليست . . صدقنى . .

ـ ليكن. الظاهر أنى استوقفت سيارة «ملاكى» بظن أنها تاكسى . .

فريكيكو، لا تشغل بالك بأشياء تافهة. الخطأ أننى صادقت زمنًا عدواً وأنا أحسبه الصديق. ولكنى سعيد بحريتى. لقد قذفت بى طبقتى إلى الماء والقارب يميل إلى الغرق، ولكنى سعيد بحريتى. لا ولاء عندك لشىء. سعادة عظمى ألا يكون لك ولاء لشىء. لا ولاء لطبقة أو وطن أو واجب. لا أعرف عن دينى إلا أن الله غفور رحيم.

فريكيكو . . لا تلمنى . .

* * *

انفجرت فى الخارج ضجة لا عهد للبنسيون بها.

كنت مستيقظًا لتوى من القيلولة فخرجت إلى الصالة. وضح لى أن ثمة معركة فى المدخل. نظرت من فرجة البارفان فرأيت مشهداً مسليًا حقًا. امرأة غريبة ممسكة بتلابيب صديقنا البحيرى تنهال عليه ضربًا وسبًا. وزهرة واقفة متوترةالأعصاب تنطق بكلمات سريعة وتحاول التخليص بينهما. المرأة تنقض على زهرة فجأة ولكن زهرة أثبتت أنها مصارعة ذات جبروت. لكمتها مرتين، وفى كل مرة أطاحت بها حتى ألصقتها بالجدار. إنها جميلة ولكنها خفير ذو قبضة حديدية. لبثت متواريًا لأتيح لنفسى أكبر قدرمن تسلية فريدة حقًا. ولكنى عندما ترامى إلى صرير أبواب خرجت من مكمنى، فأخذت المرأة الغريبة من معصمها، وذهبت بها خارجًا وليس علىّ ـ عدا البيجاما ـ إلا الروب. دفعتها برقة أمامى، معلنًا لها عن أسفى، واضعًا نفسى فى خدمتها. كانت تغلى بالغضب غليانًا، وتسب وتلعن، ولم يبد عليها أنها أحست

بوجودى بعد. إنها امرأة لا بأس بها وقد أوقفتها عند بسطة السلم بالدور الثانى وأنا أقول:

ـ انتظرى لحظة، يجب أن تصلحى حالك قبل الخروج إلى الشارع..

سوت شعرها، وشبكت طوق فستانها الممزق بمشبك من شعرها، ثم أعطيتها منديلاً معطرًا لتمسح به وجهها.

ـ سيارتى أمام العمارة سأوصلك إذا سمحت بها..

نظرت إلىّ لأول مرة. شكرتنى بعجلة، ثم نزلنا معًا جلست فى السيارة إلى جانبى فسألتها عن المكان الذى تود الذهاب إليه فتمتمت بصوت مبحوح:

ـ الأزاريطة..

سرنا تحت سماء ملبدة بالغيوم وقد عاجلنا الظلام قبل أوانه. قلت مستدرجًا:

ـ لعنة الله على الغضب..

فهتفت:

ـ السافل الحقير!

ـ يبدو أنه فلاح طيب؟

ـ سافل حقير..

تساءلت بسخرية خفية:

ـ خطيبك؟

لكنها لم تجب. مازالت مشتعلة. هى امرأة لا بأس بها، ومحترفة بطريقة ما على وجه اليقين. أوقفت السيارة أمام عمارة بشارع الليدو فقالت وهى تفتح الباب:

ـ أشكرك، إنك رجل كريم..

ـ لا أريد أن أتركك وحدك لأطمئن عليك!

ـ أشكرك، إنى على خير حال. .

ـ إذن فهو الوداع؟

مدت يداً لتصافحنى ثم قالت:

ـ إنى أشتغل فى الجنفواز!

درت بالسيارة وأنا متحمس لمعرفة مزيد من المعلومات بيد أن تحمسى فتر قبل أن أبلغ العمارة. الأمر واضح وتافه. عشق وهجر ثم معركة تقليدية. وها هو يلقى زهرة فيبدأ حكاية جديدة. والمرأة لا بأس بها وقد أحتاج إليها ذات ليلة. ولكن ما الذى دفعنى إلى تكبد مشاق هذه الرحلة السخيفة؟!

فريكيكو. . لا تلمنى. .

* * *

السيارة تطير فوق أرض الشوارع السنجابية، المصابيح وأشجار الكافور تركض فى الاتجاه المضاد. السرعة الانسيابية تنعش القلب فتنفض عنه الخمول والملال. ويزمر الهواء ويرعش الأغصان فتشتت فى انتشارات جنونية. أو ينهمر المطر فيغسل الزرع فتضىء الحقول بخضرة متألقة. من قايتباى إلى أبى قير، من بحرى حتى السيوف، البطن والأطراف، وكل أرض ممهدة: أهيم فوقها بسيارتى.

والوقت يمر ولا خطوة جدية أخطوها لتحقيق المشروع.

وخطر لى أن أقوم بجولة استكشافية فى مراكز الإشعاع الأصيلة. زرت قوادة قديمة بالشاطبى فجاءتنى بفتاة مقبولة للصبوح. وتناولت الغداء عند قوادة ثانية باسبورتنج فأمدتنى بامرأة أرمنية فوق المتوسط. أما قوادة سيدى جابر فأهدت إلىّ فتاة رائعة من أم إيطالية وأب سورى فأصررت على دعوتها إلى سيارتى حذرتنى من الغيوم المنذرة بالمطر

فقلت لها إنى أتمنى أن يهطل المطر وفى الطريق الزراعى إلى أبى قير هطل المطر واختفى البشر فأحكمت إغلاق النوافذ ورحت أنظر إلى الماء المنسكب والأشجار الراقصة والخلاء النقى الذى لا نهاية له وقد ذعرت الجميلة وقالت : إن هذا جنون فقلت لها : تصورى مخلوقين مثلنا عاريين تمامًا فى سيارة وآمنين رغم ذلك من أى تطفل يتبادلان القبل على انفجارات الرعد ووميض البرق وانهلال المطر فقالت إنه المحال فقلت ألا تودين أن تخرجى اللسان للدنيا ومن عليها وأنت فى حماية هذه الغضبة الكونية فقالت محال . . محال . . فقلت ولكنه سيتحقق بعد ثوان وشربت من فوهة الزجاجة وكلما جعجع الرعد استحثثته على المزيد وتوسلت إلى السماء أن تفرغ مدخرها من الماء فقالت الجميلة قد تتعطل السيارة فقلت لها : آمين . . آمين . . فقالت وقد يدركنا الظلام فقلت وليدم إلى الأبد فقالت إنك مجنون . . مجنون . . فصحت بأعلى صوتى : فريكيكو . . لا تلمنى . .

* * *

على مائدة الإفطار بلغتنى الأنباء العجيبة على القرار الذى اتخذته زهرة للتعلم . سمعت تعليقات شتى لم تخل من مزاح ، ولكن غلبت عليها روح تشجيع . حز فى نفسى الخبر فنكأ الجرح القديم . لقد نشأت بلا رقيب حقيقى فاجتاحنى اللهو . ما أسفت على شىء وقتذاك ولكننى أدركت متأخرًا أن الزمن عدو وليس بالصديق الذى توهمته . وهاهى الفلاحة تقرر أن تتعلم . وقد شرحت لى المدام ظروفها ما بين القرية والإسكندرية . تؤكد لى أنها ليست من توابع المدام ، ولعلها ماتزال عذراء إلا يكن سرحان ممن يضيقون بالعذارى ، ولكننى قلت للمدام بخبث :

ـ ظننت زهرة . .

وأشرت بيدى إشارة ، فقالت :

ـ لا . . لا . .

فتجاهلت الموضوع بغتة قائلاً :

ـ يجب أن تفكرى فى المشروع المشترك!

فتساءلت بدهاء قوادة :

ـ من أين لى بالمال؟

فهمست باهتمام مصطنع :

ـ ماذا لو أردت أن أدعو صديقة إلى هنا؟

هزت رأسها آسفة وقالت :

ـ البنسيون مشغول كله، وإذا سمحت لواحد فكيف أرفض لآخر؟ ولكن يمكن أن أدلك على مكان إذا أردت . .

ولما صادفت زهرة فى الصالة هنأتها على قرارها وقلت لها ضاحكًا :

ـ شدى حيلك، فعندما يتحقق مشروعى سأكون فى حاجة إلى سكرتيرة! .

فابتسمت فى ابتهاج حتى أطلت آى الملاحة من قسماتها . الحق أن رغبتى فيها لم تمت . ومع سابق علمى بأننى سأشبع منها فى أسبوع إلا أنه أسبوع ضرورى فيما بدا لى .

* * *

راحت السيارة تجوب الشوارع والأحياء، فى جو صاف هادئ معتدل لدرجة أثارت أعصابى . ولكى أستمتع بأكبر قدر من السرعة الجنونية بلا عائق اتجهت إلى الطريق الصحراوى فانطلقت فيه بسرعة مائة وعشرين ك، مقدار ساعة، ثم رجعت بنفس السرعة . تناولت الغداء فى «بام بام» . والتقطت فتاة لدى مغادرتها لمحل حلاق . ثم رجعت إلى البنسيون حوالى العصر . رأيت زهرة جالسة إلى فتاة بالمدخل فأدركت من النظرة الأولى أنها المدرسة . جالست المدام

واسترقت إلى المدرسة النظر. لا بأس بها. ثمة احديداب خفيف لا يكاد يلحظ، وفطس بالأنف مقبول بل ومثير. من المؤسف أن فتاة مثلها لا تقبل ليلة حب عابرة. لابد لأمثالها من علاقة وطيدة طويلة. وقد لا ترضى بذلك أيضًا فترمى بنظرها البعيد إلى الزواج متخطية دعوة الثورة إلى تحديد النسل.

تم التعارف عن طريق المدام. وقد قدمتنى كعادتها بالكامل، أى بالمائة فدان والمشروع، فسررت لذلك وحمدت لها لباقتهاالمستقاة من خبرة السنين. وركزت فى جولاتى على حى محرم بك حيث تقع مدرستها. وأثمرت خطتى فرأيتها مرة قبيل العصر واقفة فى محطة الباص. أوقفت السيارة ودعوتها إلى الركوب. ترددت قليلاً ولكن شجعها على قبول دعوتى تلبد السماء بالغيوم. أوصلتها إلى عمارتنا وأنا أشكو لها وحدتى فى الإسكندرية، وحاجتى إلى المشورة والرأى فيما يتعلق بمشروعى، وقلت لها وأنا أودعها:

ـ أظنني بحاجة إلى لقاء آخر؟

فقالت بترحيب:

ـ تفضل بزيارتنا!

الحق يا فريكيكو أن سنى وثروتى يرشحاننى بمنطق حاسم للزواج. لذلك يتعذر علىّ أن أرافق مدرسة أو طبيبة أو مذيعة أو موظفة. وعلىّ إن أردت توسيع مجالى الحيوى أن أخدع الأبصار بدبلة زواج وهمى.

ولم أجد ما أشغل به نفسى بقية اليوم إلا أن قصدت القوادة المالطية بكليوباطرة فطلبت منها أن تدعو أكبر عدد ممكن من بناتها، وسهرت سهرة عجيبة معربدة موشاة بأبهج الحماقات التى لم يعرف التاريخ لها مثيلاً منذ عهد خليفتنا خالد الذكر هارون الرشيد.

* * *

ـ إنه لم ير أمه . . وتركه أبوه وهو فى السادسة . . لذلك لا أقسو عليه . .

كان يتكلم بهدوء أما أخى فكان ينتفض من الغضب .

* * *

حوصرت بالعجائز . الواقع أننى لا أحب قلاوون الصحافة وهيهات أن أوفق إلى خير ما دمت أصبح على وجهه . وسألنى طلبة مرزوق عن مدى تقدمى فى مشروعى . وتشممت فى الجو رائحة بخور فتساءلت عنها فضحك طلبة بك وقال :

ـ كان يجب أن ترى المدام وهى تطوف بالحجرات حاملة المبخرة !

نظرت إليها قائلاً :

ـ إذن فأنت تحبين أم كلثوم وتؤمنين بالبخور ؟

ابتسمت ابتسامة عابرة لشدة متابعتها لأغنية يونانية . وقلت لطلبة بك :

ـ يجب أن أجد خواجا ممن ينوون الهجرة لأشترى عمله .

ـ فكرة حسنة ، ما رأيك يا ماريانا ؟

أجابت بعجلة حتى لا تنقطع عن الأغنية :

ـ نعم ، انتظر ، أظن صاحب مقهى ميرامار يفكر فى ذلك .

فسألتها :

ـ ماذا تعنى الأغنية ؟

أجابت بدلال :

ـ عن البنت فى سن الزواج ، ماما تسألها وهى تجيب معددة المزايا التى تتطلبها فى العريس !

نقلت بصرى بين صورة الكابتن وصورة شبابها فغمغمت :

ـ كان من الممكن أن أبقى سيدة حتى اليوم . .

ـ إنك سيدة تمامًا .

فقالت محتجة:

- أعنى سيدة فى قصر الإبراهيمية!

والتفت نحوى قلاوون الصحافة وقال:

- لا تدع الوقت يمر دون أن تفعل شيئًا..

لعنته فى سرى. كان الجو قارص البرودة صامتًا. وكنت على موعد من الفتاة الإيطاسورية فى سكن القوادة بسيدى جابر.

فريكيكو.. لا تلمنى.

* * *

علمت بزيارة شقيقة زهرة وزوجها على مائدة الإفطار.

- قررت البقاء معنا بصفة نهائية..

قالت المدام ذلك بارتياح، فقلت:

- لنحمد الله على أن المقابلة مرت بسلام، أعنى دون شروع فى القتل!

ثم قلت لسرحان البحيرى ساخرًا:

- الظاهر أن البحيرة خرعة!

- خرعة؟!

- يقال إن قربها من الإسكندرية قد أضعف من ضراوة تقاليدها الريفية..

فقال بصوته الرنان متباهيًا:

- ذاك يعنى أنها أعظم تمدينًا من سائر الريف!

* * *

ركب طلبة مرزوق معى لكى أوصله إلى فندق وندسور لمقابلة صديق قديم. إنه الشخص الوحيد الذى أضمر له حبًا واحترامًا. وهو يقوم أمام

عينى كتمثال أثرى لملك قديم، دالت دولته وولى زمانه، ولكنه يحتفظ بكافة مزاياه الذاتية. قلت له والخبث يسيطر على أفكارى:

ـ ألم يكن الأجدر بالفلاحة أن تذهب مع أهلها؟

فقال ضاحكًا:

ـ كان الأجدر بها ألا تهرب من أول الأمر.

ـ أعنى أن لديها من الأسباب ما يمنعها من العودة حتى لو تمنتها!

ـ تقصد الفتى البحيرى؟

ـ ليس هذا بالضبط ما أعنيه، ولكنه يرجع إليه على أى حال!

ضحك الرجل وقال:

ـ محتمل جدًا، ومحتمل أنه برىء مما تظن، وأن آخر كان وراء الدافع لهربها من القرية!

وقد تضاعف سوء ظنى عندما علمت ـ عقب ذلك بأيام ـ برفضها الزواج من محمود أبو العباس بياع الجرائد. وكان محمود قد شاورنى فى الأمر ـ كزبون قديم له ـ قبل أن يقدم على الذهاب إلى المدام لطلب يد الفتاة. وعندما وقفت أمام معرضه فى اليوم التالى لمسعاه الفاشل كنت واثقًا من مناقشته للموضوع ومتأهبًا له. كان يبدو ممتعضًا وحانقًا. تبادلنا نظرات تغنى عن قول الكثير، ثم قلت له مواسيًا:

ـ هاك عينة من بنات اليوم.

فقال بغضب:

ـ هيهات أن تجد مثلى الحمقاء..

ـ سيعوضك الله بخير منها، وإن أردت الحق فليس البنسيون بالمكان المناسب لاختيار عروسك..

ـ ظننتها بنتًا طيبة..

ـ أنا لم أقل إنها ليست كذلك ولكن . .

فسألني باهتمام :

ـ ولكن ماذا؟

ـ ماذا يهمك منها وقد انتهى أمرها بالنسبة إليك؟

ـ ليرتاح قلبي .

ـ أيرتاح قلبك لو قلت لك إنها تحب سرحان البحيرى؟

ـ المجنونة! . . وهل سيتزوج الأستاذ سرحان منها؟

فقلت وأنا أودعه :

ـ تكلمت عن الحب لا الزواج!

كنت أكره سرحان من أول يوم . أجل قد تهبط كراهيتى له لدرجة الصفر فى الأوقات التى يفتح لى قلبه المطبوع على الألفة والمعاشرة ولكن سرعان ما يرجع الحال إلى أصله . ولا دخل لزهرة فى هذه الكراهية فهى أتفه من أن تجعلنى أكره أو أحب إنسانًا . ربما لصراحته العمياء أحيانًا ، وربما لإصراره على الإشادة بالثورة لمناسبة ولغير مناسبة . لذلك فكثيراً ما أرغمنى على مجاراته ولو بالسكوت . وقد فاض بى الكيل مرة فقلت له :

ـ نحن مؤمنون بالثورة ولكن لم يكن ما سبقها فراغًا كله .

فقال بعناد مثير :

ـ بل كان فراغًا . .

ـ كان الكورنيش موجوداً قبلها ، كذلك جامعة الإسكندرية!

ـ لم يكن الكورنيش للشعب ، ولا الجامعة . .

ثم سألنى ضاحكًا ، وبلا حقد ظاهر .

ـ خبرنى لم تملك وحدك مائة فدان على حين أن كل ما تملكه أسرتى عشرة فقط؟

فسألته وأنا أكظم غيظى :

ـ ولم تملك عشرة على حين لا يملك ملايين من الفلاحين قيراطًا واحدًا!!

* * *

ـ مهما تقل فلن أصدق كلمة واحدة مما تقول، إن رفض مرفت لك أطاح بعقلك، ولا تصدق ما يقال عن العدالة والاشتراكية، المسألة تتلخص فى كلمة واحدة: القوة، إن من يملك القوة يملك كل شىء، ولا بأس بعد ذلك من أن يتغنى أمام الناس بالعدالة والاشتراكية، وإلا فخبرنى بالله هل رأيت أحدًا منهم يسير فى الأسواق شبه جائع مثل سيدنا عمر؟!

* * *

على أى حال سرعان ما بلغنى الخبر اللذيذ عن القتال بين محمود أبو العباس وسرحان البحيرى يا بصل! وتجاهلت الأمر احترامًا لصمته، بل انتهزت فرصة اجتماعى به فى مدخل البنسيون فسألته الرأى عن المشروع، وإذا به يقول لى فى اهتمام:

ـ اصرف النظر عن مشروع المقهى وما شاكل ذلك، إنك ابن ناس، وعليك أن تختار مشروعًا مناسبًا.

ـ مثل ماذا؟

ـ أنا أقول لك، مشروع تربية دواجن وعجول مثلاً، إنه يدر ذهبًا.

ثم بعد تفكير قليل:

ـ ممكن أن نؤجر قطعة أرض فى منطقة سموحة، وممكن أن أساعدك بما لى من خبرة وأصدقاء وربما شاركتك إذا ما أسعفتنى الظروف.

* * *

ما أضيق الإسكندرية فى عينى سيارة مجنونة. إنى أمرق فيها كالهواء

ولكنها انقلبت علبة سردين. الليل يتبع النهار فى إصرار غبى ولكن لا شىء يحدث على الإطلاق. ورغم أن السماء تتزين كل يوم برداء. والطقس كالبهلوان لا يمكن التنبؤ بحركته التالية، والنساء يقبلن فى ألوان لا حصر لها، فلا شىء يحدث على الإطلاق. الكون فى الحقيقة قد مات وما هذه الحركات إلا الانتفاضات الأخيرة التى تند عن الجثة قبل السكون الأبدى.

وتذكرت الجنفواز.

إنه يقع على الكورنيش متحديًا البحر والشتاء ولكن بابه يقع فى شارع خلفى ضيق. له مسرح للغناء والرقص، وتتوسطه باحة للرقص المشترك، وينتشر اللون الأحمر الكابى فى السقف والجدران والمصابيح كأنه مأوى للجان، ومن نظرة إلى فتياته وزبائنه يتسرب إلى النفس إحساس محتوم بأنه ماخور.

رأيت فتاة البحيرى ترقص رقصة فولكورية مبتذلة. دعوتها إلى مائدتى فلم تعرفنى بادئ الأمر ثم اعتذرت بحالها يوم التعارف. وسرعان ما قالت إنها انتظرت مقدمى طويلاً فاعتذرت بضيق الوقت وكثرة المشاغل. عرفت أن اسمها صفية بركات والله أعلم باسمها الحقيقى. وهى أجمل من المدرسة ولكن يعيبها ميل إلى البدانة، وتستقر فى وجهها المليء نظرة محترفة. شربت كثيراً حتى أوشكت أن أفقد الوعى ثم دعوتها إلى سيارتى ومضيت بها إلى شارع الليدو بالأزاريطة، ولما هممت بمصاحبتها اعتذرت بعذر قهرى فرجعت إلى البنسيون وأنا من السكر وسوء المآل فى حال.

التقيت وأنا ذاهب إلى حجرتى بزهرة وهى راجعة من الحمام فى قميص النوم. اعترضت سبيلها مفتوح الذراعين. توقفت متوثبة. اقتربت منها فقالت بحزم:

ـ ابعد . .

أشرت بأصبعى إلى حجرتى فقالت متوعدة :

ـ ابعد واذهب لحالك .

انقضضت عليها بالرغبةوالسكر فضربتنى بقبضتها فى صدرى ضربةمذهلة أشعلتنى بالغضب. جن جنونى فلطمتها بوحشية. وصممت على الانقضاض حتى النهاية ولكن يداً وضعت على كتفى وجاءنى صوت سرحان اللاهث وهو يقول :

ـ حسنى . . أجننت؟

دفعته بوحشية ولكنه شد على كتفى قائلاً :

ـ ادخل الحمام وضع إصبعك فى فمك .

استدرت نحوه ولطمته بشدة على غرة منه. تراجع وهو يهدر ثم لطمنى بقوة. وإذا بالمدام قادمة وهى تحبك حولها الروب متسائلة فى جزع :

ـ ماذا يحدث؟!

ثم دخلت بينى وبين سرحان وهى تقول بغضب :

ـ لا ، هذا تخريب ، ولا يمكن أن أقبله .

* * *

الملائكة تسبح أو ترقص فى السقف. المطر يعزف فوق النوافذ وهدير الأمواج يصك الأذنين بانفجارات معركة محتدمة. أغمضت عينى مرة أخرى تحت لطمات الصداع. تأوهت ثم لعنت كل شىء. ثم اكتشفت أننى نمت بقية الليل بالبدلة والمعطف والحذاء. وانهالت على ذكريات الليلة الماضية فلعنت كل شىء.

وجاءت المدام بعد أن أذنت لها بالدخول. وقفت تنظر إلى وأنا

أتزحزح متثاقلاً متكاسلاً إلى الوراء لأجلس مستنداً إلى رأس الفراش، وقالت:

ـ تأخرت عن موعدك؟

ثم غاصت فى المقعد الكبير وهى تقول فى عتاب:

ـ ها هى عاقبة السكر الشديد.

تلاقت عينانا فابتسمت وقالت:

ـ إنك أعز من عندى ولكن لا تعد للسكر.

رفعت عينى إلى السقف المزركش بصور الملائكة وتمتمت:

ـ إنى آسف.

ثم بعد فترة صمت:

ـ يجب أن أعتذر لزهرة.

ـ حسن ولكن عدنى بأن تسلك السلوك اللائق بأسرتك.

ـ اعتذرى عنى لزهرة حتى أعتذر لها بنفسى.

وقد انقطع ما بينى وبين سرحان أما زهرة فصالحتها بعد إباء وتمنع. ولا أنكر أن مخاصمة سرحان قد خلقت فراغاً فى نفسى. الآخر ـ منصورباهى ـ لا أكاد أعرفه، ولا علاقة لى به سوى كلمات عابرة نتبادلها على مائدة الإفطار فلا يبقى منها فى الذاكرة شىء. إننا نتبادل ـ بلا شك ـ كراهية صامتة. وإنى أحتقر انطواءه وغروره وأنوثته وما يحلى به نفسه من أدب ظاهرى رخيص. وقد سمعته مرة فى الراديو فهالنى صوته ـ الكاذب مثله ـ الذى تحسبه صادراً عن فارس خطيب. ومن عجب أنه لم تنشأ مودة بينه وبين أحد سوى قلاوون الصحافة مما جعلنى أقطع بأن العجوز الأعزب لوطى سابق!

* * *

يحسن بى ألا أغادر الحجرة!. ولكن ثمة حادث سعيد يقع فى

الخارج. فى حجرة البحيرى؟!. أجل. مناقرة.. بل مشاجرة.. بل معركة.. بين روميو البحيرى وجولييت البحيرية.. ما معنى ذلك؟ هل طالبته بإصلاح غلطته؟. هل رام التملص والهرب كما فعل مع صفية؟. إنه لأمر بالغ اللذة ولكن يحسن بى ألا أغادر الحجرة. أين كانت تختبئ جميع تلك المسرات؟. فريكيكو انتبه جيدًا واستمتع باللحظة البديعة. وصاح الصوت الرنان:

ـ أنا حر.. أتزوج بمن أشاء.. سأتزوج من علية.

يا سيد يا بدوى!. علية!. الأستاذة؟. هل لبى الدعوة لزيارة بيتها؟. هل تحول من التلميذة إلى الأستاذة؟. أشهد يا فريكيكو. أى يوم بهيج يا إسكندرية. لتحيا الثورة. ولتحيا قوانين يوليو. ها هو صوت المدام يرطن بالعربية. وها هو صوت المذيع الهمام بلحمه ودمه، أخيرًا تنازل بالاهتمام بشئون الرعية. وسيجد ولا شك حلاً لهذه المشكلة الريفية. يا أهلاً بالمعارك. فريكيكو.. يجب أن تتحرك. احذر أن تسبقك الأحداث.

وقد سمعت القصة مرة أخرى على ربابة المدام. وقالت لى فى الختام:

ـ لقد طردته، ما كان يجب أن يقيم بيننا يومًا واحدًا!

أثنيت على شهامتها، ثم سألت عن زهرة فقالت بأسف:

ـ معتكفة فى حجرتها متوعكة.

أجل. القصة القديمة. المتجددة مثل فصول السنة. وقد هنأ البحيرى بالطرد. فاز بترقية إلى الدور الخامس. ولا يدرى أحد أين ينتهى به الطريق.

وقالت المدام:

ـ إن صاحب الميرامار يفكر جديًا فى بيعها.

فقلت بثقة:

ـ إنى على استعداد لمفاوضته.

وغادرت البنسيون مدفوعًا برغبة حامية فى مسح الإسكندرية بالطول والعرض.

فريكيكو.. لا تلمنى..

* * *

لأول مرة أراها منهزمة منسحقة. شحب لونها الخمرى وفقدت عيناها العسليتان الرونق والبريق. صبت لى الشاى وهمت بالانصراف فرجوتها أن تبقى. كان الهواء يزأر فى هبات متقطعة، وجو الحجرة القاتم يشى بتجمع السحب.

ـ زهرة.. الدنيا مليئة بالسفالات ولكنها لا تخلو من خير..

لم يبد عليها أنها تهتم بالإصغاء إلىّ أو أنها تهتم بأى شىء.

ـ انظرى ماذا فعلت أنا، ضاق بى العيش بين أهلى فى طنطا فهاجرت إلى الإسكندرية.

لم تنبس ولا دبت فيها نسمة اهتمام.

ـ أقول لك إنه لا حزن يدوم ولا فرح، وأن على الإنسان أن يجد طريقه، وإذا ساقه الحظ إلى طريق مسدودة فعليه أن يتحول إلى أخرى.

ـ كل شىء طيب، لست آسفة على شىء.

ـ بل أنت حزينة، حزينة جداً يا زهرة، ولك حق، ولكن عليك أن تختارى النجاة، هذا الاختيار نصف النجاة إن لم يكن النجاة كلها.

قاومت التأثر بإرادة جبارة طبعت وجهها بطابع دميم عابر، فقلت:

ـ أصغى إلى، إليك اقتراحًا، لا تبتى فيه برأى الآن، ولكن فكرى فيه على مهل.

وتريثت لحظات ثم قلت :

ـ عما قريب سيكون لدى عمل .

تململت ، فقلت :

ـ ستجدين عندى إذا شئت وظيفة محترمة !

ارتسم سوء الظن فى عينيها فقلت :

ـ هذا المكان لا يصلح لك . . بنت محترمة بين أشكال وألوان من مريدى اللهو والتسلية ، من يقر ذلك؟

لم تأخذ كلمة من قولى مأخذ الجد ، ذلك واضح جدًا ، فقلت :

ـ ستكونين عندى فى حصن . . عمل شريف وحياة ممتازة .

غمغمت بما لم أسمع ثم حملت الصينية وذهبت .

غضبت . عليها وعلى نفسى غضبت لحد المقت . شهوات المحرومين أعمتها عن حقارتها . ملعونة الأرض التى أنبتتك فى طينها . وقلت بذلة ومرارة :

فريكيكو . . لا تلمنى . .

* * *

سهرت بين الجدران الحمراء الكابية فى الجنفواز . دعتنى صفية إلى المبيت فى بيتها فلبيت . عرضت همومى للمناقشة وأنا سكران تمامًا . ولما جاء ذكر المشروع وثب صوتها قائلاً :

ـ جاء الفرج !

ثم قالت وهى تشعل سيجارة :

ـ الجنفواز . . صاحبه يرغب فى بيعه .

فقلت بلسان مخمور :

ـ ولكنه حقير كئيب !

ـ فكر فى موقعه الممتاز . . ممكن أن يصير ملهى ومطعمًا ممتازًا!

وأكدت أنه يدر ربحًا كثيرًا وهو بحالته الراهنة وتنبأت له بمزيد من النجاح إذا جدد. قالت:

ـ أنت ابن ناس، وسيضع البوليس ذلك فى اعتباره، وعندى خبرة لا حد لها، الصيف مضمون، وبقية العام مضمونة كذلك بفضل الليبيين الذين يفدون علينا محملين بنقود البترول.

قلت وكأنى فى حلم:

ـ رتبى لى مقابلة مع الخواجا.

ـ فى أقرب فرصة وسوف أختص أنا بالجانب النسائى.

ـ اتفقنا.

قبلتنى وهى تتساءل:

ـ لم لا تجىء للإقامة معى؟

ـ فكرة، ولكن يجب أن تعرفينى على حقيقتى من أجل تعاون دائم ، أنا لا أعرف ذلك الشىء الذى تسمونه الحب.

* * *

حوالى العاشرة صباحًا عدت إلى البنسيون. التقيت بسرحان البحيرى فى مدخل العمارة، تجاهلته كما تجاهلنى ووقفنا ننتظر هبوط المصعد وأنا أقول لنفسى لعله جاء لزيارة آل عروسه. وفجأة التفت نحوى وقال:

ـ إنك كنت السبب فيما وقع بينى وبين محمود أبو العباس!

تجاهلته تمامًا كأننى لم أسمع صوتًا، فاستمر يقول:

ـ لقد اعترف لى بذلك.

ولما أصررت على تجاهله فى احتقار وبرود قال بعصبية:

ـ على أى حال فقد خلا سلوكك من شهامة الرجال .

تحولت إليه بغضب صائحًا :

ـ اخرس يا ابن الكلب!

وسرعان ما تبادلنا الضربات حتى جاء البواب ورفاق له فخلصوا بيننا . توقف الضرب وبدأ السباب . حتى هتف :

ـ سأؤدبك . . انتظرنى .

فهتفت بدورى :

ـ تعال لأريحك من حياتك القذرة .

* * *

فى مجلس الأصيل حول الراديو وجدت المدام وطلبة بك ، فقالت لى المدام :

ـ اشترك معنا فى التفكير ، كيف نقضى ليلة رأس السنة؟

ثم أشارت إلى طلبة بك وقالت :

ـ من رأيه أن نسهر فى المونسنيير ولكن عامر بك يفضل البقاء هنا؟

ـ أين عامر بك؟

ـ إنه معتكف ، عنده برد .

ـ دعيه فى اعتكافه ، ولنذهب إلى المونسنيير ، يجب أن نلهو بعنف حتى الصباح!

وبعد صمت قليل قلت لها :

ـ أخيرًا تحقق المشروع!

وقصصت عليها الخبر حتى عكس وجهها خيبة أمل واضحة ، ثم قالت :

ـ لا تتسرع . . يجب أن تفكر .

ـ كفانى تفكير .

ثم صرحت قائلة بعد تردد:

ـ مقهى الميرامار أفضل.. وإنى أفكر جديًا فى مشاركتك..

فقلت ضاحكًا:

ـ ربما فكرت فى التوسع مستقبلاً.

وانبعثت من أعماقى رغبة جامحة فى الاستمتاع لأقصى حد بليلة رأس السنة الجديدة.

* * *

وقد تعرفت بصاحب الجنفواز فى نفس الليلة فى حجرة مكتبه بالملهى. وتم الاتفاق على البيع من حيث المبدأ، ثم دعانى إلى سهرة فى مسكنه بكامب شيزار بعد موعد الإغلاق. وشهدت صفية السهرة واشتركت فى مناقشة التفاصيل. وجاء ذكر لليلة رأس السنة فاتفقنا أيضًا على الاحتفال بها معًا فى الجنفواز على أن نكمل السهرة فى بيت الخواجا أو فى أى مكان آخر، فهنأت نفسى على الخلاص من سهرة العجائز.

وفى صباح اليوم التالى لاحظت أن حجرة الإفطار تطالعنى بوجه غريب. أجل كان قلاوون الصحافة معتكفًا فى حجرته مايزال، ولكن منصور باهى لم يفارق حجرته أيضًا، ولم أر أثرا لزهرة. وقرأت فى وجهى المدام وطلبة بك وجومًا ينذر بالشر، وإذا بالرجل يقول:

ـ أما علمت بالخبر؟

رمقته بنظرة متسائلة فقال:

ـ لقد عثر على سرحان البحيرى جثة هامدة فى طريق البالما..

لبثت لحظات ذاهلاً قبل أن يستقر الخبر فى وعيى وإدراكى. واكتسحنى شعور من الانزعاج والإشفاق، والقلق حيال طبيعة الموت الغامضة المقتحمة. وسألت:

ـ ميتًا؟

ـ بل قتيلاً.

ـ ولكن.

فقاطعتنى المدام:

ـ اقرأ الجريدة، إنه خبر مزعج، وقلبى يحدثنى بمتاعب كثيرة.

تذكرت المعركة الأخيرة أمام المصعد فامتعضت نفسى. وخشيت أن تمتد إلى المتاعب التى تنبأت بها المدام. وسألت وأنا أدرك سخف السؤال وعمقه:

ـ ترى من يكون القاتل؟

فقالت المدام:

ـ هذا هو السؤال طبعًا.

وقال طلبة مرزوق:

ـ وعندما يسألون عن أعدائه..؟!

أجبت وقد استعدت شيئًا من روح السخرية:

ـ فى الحق لم يكن له صديق بيننا!

فقال طلبة مرزوق:

ـ وهل يكون له أعداء آخرون.

ـ ستعرف الحقيقة عاجلاً أو آجلاً.

وسألت عن زهرة فأجابت المدام:

ـ فى حجرتها على أسوأ حال..

أفقت من وقع الخبر فرددت قائلاً:

ـ لتكن مشيئة الله.

كان فى نيتى أن أخبر المدام بما استقر عليه رأيى من الانتقال من

البنسيون ولكنى أجلت ذلك إلى وقت آخر. ولما هممت بالخروج قال لى طلبة بك:

ـ محتمل أن ندعى جميعًا لسماع أقوالنا.

فقلت وأنا أمضى:

ـ فليدعنا من يشاء.

صممت على غسل رأسى بجولة من جولاتى الانطلاقية فى أنحاء الإسكندرية. كانت السحب البيضاء دانية يقطر منها لون رائق، والهواء خفيفًا سريعًا لاذعًا.

إنه آخر يوم فى السنة وقد تضاعفت رغبتى فى إحياء ليلة جنونية حتى الصباح.

ولقد وضحت لى معالم الطريق، فليمت من يموت وليعش من يعيش.

دفعت السيارة وأنا أقول لصورتى فى المرآة الصغيرة:

فريكيكو.. لا تلمنى.

٣

منصور باهى

قضى علىّ بالسجن فى الإسكندرية وبأن أمضى العمر فى انتحال الأعذار.

قلت ذلك لأخى وأنا أودعه، ثم ذهبت رأسًا إلى بنسيون ميرامار فتحت شراعة الباب عن وجه عجوز ذى طابع أنيق متعال، رغم الكبر ورغم المهنة ، فسألتها:

ـ مدام ماريانا؟

أجابت بالإيجاب فقلت:

ـ منصور باهى..

فتحت لى الباب مرحبة وهى تقول:

ـ أهلاً. حدثنى أخوك بالتليفون.. اعتبر نفسك فى بيتك.

انتظرت عند الباب حتى وصل البواب حاملاً الحقيبتين، ثم دعتنى إلى الجلوس وجلست هى على كنبة تحت تمثال للعذراء:

ـ أخوك ضابط بوليس عظيم، كان ينزل عندى قبل أن يتزوج، وقد أقام فى الإسكندرية عمراً وها هو ينتقل إلى القاهرة..

تبادلنا نظرات مودة وهى تتفحصنى بدقة وعناية ثم سألتنى:

ـ كنت تقيم معه؟

ـ نعم.

ـ طالب؟ . . موظف؟

ـ مذيع فى محطة الإسكندرية .

ـ ولكنك أصلا من القاهرة؟

ـ نعم . .

ـ اعتبر نفسك فى بيتك ولا تحدثنى عن الإيجار . .

ضحكت مستنكراً، ولكنى شعرت أنها على استعداد لقبولى بالمجان لو أردت. حسن، العفن يجرى مع الهواء ولعله يصدر أصلاً من ذاتى أنا .

ـ وأى مدة ستقيم معنا؟

ـ غير محدودة . .

ـ سنتفق على أجرة مناسبة ولن أطالب برفعها فى الصيف . .

ـ شكرًا، لقد أرشدنى أخى إلى ما يجب عمله وسوف أدفع فى المصيف كالمصيفين . .

انتقلت بلباقة إلى موضوع آخر فتساءلت :

ـ أعزب؟

ـ نعم .

ـ متى تفكر فى الزواج؟

ـ ليس الآن على أى حال .

فضحكت عاليًا وهى تسأل :

ـ فيم تفكر إذن؟

جاريتها فى الضحك بلا روح . ودق الجرس فقامت ففتحت الباب فدخلت فتاة حاملة لفة كبيرة من البقالة أو غيرها ثم مضت إلى الداخل . من نظرة أدركت أنها خادمة وأنها جميلة . ثم عرفت ـ والمدام تخاطبها ـ

أن اسمها زهرة. وهى فى سن طالبة جامعية وكان ينبغى أن تكون كذلك.

قادتنى المدام إلى إحدى الحجرتين المطلتين على البحر وهى تقول:

ـ هذا الجانب غير مناسب للشتاء ولكنها الحجرة الوحيدة الخالية..

فقلت بلا اكتراث:

ـ إنى أحب الشتاء..

* * *

وقفت فى الشرفة وحيداً. ترامى البحر تحتى إلى غير نهاية، ينبسط فى زرقة صافية بديعة، وتلعب أمواجه الهادئة بلآلئ الشمس. غمرتنى ريح خفيفة فى ملاطفة منعشة ولم يكن فى السماء إلا سحابات متفرقة. كاد يغلبنى الحزن ولكن سمعت حركة خفيفة فى الحجرة فالتفت مستطلعًا فرأيت زهرة وهى تفرش السرير بالملاءات والأغطية. عملت بهمة دون أن تنظر نحوى فتمليتها على مهل وسرعان ما أكبرت ملاحتها الريفية الباهرة. وقلت راغبًا فى إنشاء علاقة ومودة:

ـ أشكرك يا زهرة.

فابتسمت إلىّ ابتسامة تشرح الصدر، فطلبت فنجال قهوة فجاءتنى به بعد دقائق معدودة. وقلت:

ـ انتظرى من فضلك حتى أفرغ..

وضعت طبق الفنجال على سور الشرفة ومضيت أحتسيه فاقتربت حتى وقفت عند العتبة رانية إلى البحر فسألتها:

ـ تحبين الطبيعة؟

لم تجب. ولكنها لم تفهم. ترى ماذا يشغل بالها؟ ولكن لا ريب أنها بالغريزة المرتوية من الأرض تتحفز للعمل الأول الذى تهتم به الطبيعة الخلابة. قلت:

ـ لدى فى الحقيبة الكبرى كتب ولا صوان لها فى الحجرة.

استعرضت قطع الأثاث بعينيها ثم قالت ببساطة:

ـ دعها فى الحقيبة.

ابتسمت ثم سألتها:

ـ تعملين هنا من قديم؟

ـ كلا.

ـ والمكان أهو مناسب لراحتك؟

ـ نعم.

ـ ألا يضايقك الرجال الذين يجيئون ويذهبون؟

هزت منكبيها ولم تجب بلا أو نعم فقلت:

ـ إنهم مخيفون أحيانًا، أليس كذلك؟

تناولت الفنجال ثم قالت وهى تهم بالذهاب:

ـ أنا لا أخاف!

أعجبت بثقتها بنفسها. وإذا بى أعانى إحساسًا بالحسرة. وكعادتى جعلت أفكر فيما هو كائن وما ينبغى أن يكون. وتهددنى الحزن مرة أخرى.

تفقدت قطع الأثاث ثم قر عزمى على شراء مكتبة صغيرة للكتب، أما الترابيزة المستديرة القائمة بين صوان الملابس والشزلونج فصالحة للكتابة.

* * *

لبثت فى دار الإذاعة بضع ساعات لتسجيل البرنامج الأسبوعى. تناولت الغداء فى مطعم بترو بشارع صفية زغلول. جلست فى على كيفك لأحتسى فنجالاً من القهوة. مضيت أتسلى بمشاهدة الميدان المغطى بمظلة من السحب. وقد انتشرت معاطف المطر المطوية على

الأذرع. وفجأة دق قلبى عندما مر أمامى ذاك الرجل . فوزى! . انحنيت إلى الأمام قليلاً حتى أوشك جبينى أن يمس الزجاج لأتأكد من هويته. كلا، ليس بفوزى، ليس بفوزى على وجه اليقين. ولكن ما أعظم التماثل بينهما ودرية حضرت بالتداعى كما يقال. وهى تحضر بلا قانون إلا قانونها الأزلى. أجل درية. ماذا لو كان هو فوزى حقًا؟. وماذا لو تلاقت الأعين؟. إذا رأيت صديقًا حميمًا وجبت عليك معانقته. وهو أيضًا بمنزلة الأستاذ. لتكن معانقة حارة وإن أدمتك الأشواك. وادعه إلى فنجال قهوة فبذلك تقضى آداب الضيافة.

ـ أهلاً. . أهلاً. . ماذا جاء بك إلى الإسكندرية فى هذا الوقت من العام؟

ـ زيارة عائلية!

هذا يعنى أنه جاء ليمارس نشاطًا ولكنه يخفيه عنى كما يجدر به. على أننى قلت:

ـ أتمنى لك إقامة دائمة.

ـ لم نرك منذ عامين، وبالدقة منذ تخرجك.

ـ بلى، فقد عينت فى محطة الإسكندرية كما تعلم!

ـ أعنى أنك هجرتنا تمامًا.

ـ بعض المتاعب. . أعنى صادفتنى بعض المتاعب.

ـ قد يكون من الحكمة ألا يستمر الإنسان فى عمل لا يناسبه.

اجتاحتنى كبرياء عمياء فقلت:

ـ وقد لا يستمر فى العمل أيضًا إذا كف عن الإيمان به.

تمهل كعادته ليزن كلماته ثم قال:

ـ قيل إن أخاك. .

قاطعته باستياء:

ـ لست قاصراً . .

فضحك قائلاً :

ـ أعضبتك؟ . . معذرة . .

توترت أعصابى . درية . وتساقط رذاذ فتمنيت أن ينهل المطر ليخلو الميدان من البشر . عزيزتى . لا تصدقى . قديمًا قال حكيم إننا قد نكذب أحيانًا لنقنع الآخرين بأننا صادقون . وعددت الحظ صديقى المخيف فسألنى :

ـ ألم تعد تهتم بشىء؟

فضحكت . كادت تند عنى ضحكة . وقلت :

ـ ما دمت أحيا فلا بد أن أهتم بشىء .

ـ مثل ماذا؟

ـ ألا ترى أننى حلقت ذقنى وأننى أحكمت عقد الكرافتة؟

فسألنى جاداً :

ـ وماذا أيضًا؟

ـ هل شاهدت فيلم مترو الجديد؟

ابتسم ثم قال :

ـ فكرة . . فلنشاهد فيلمًا رأسماليًا !

* * *

زارتنى مدام ماريانا فى حجرتى زيارة مجاملة . ينقصك شىء؟ . أى خدمة؟ . كن صريحًا ، كان أخوك صريحًا وكان شهمًا بكل معنى الكلمة ، وهو قوى ضخم عملاق ، أما أنت فدقيق متناسق ولكنك قوى أيضًا ، اعتبر البنسيون بيتك . واعتبرنى صديقة ، صديقة بكل معنى الكلمة .

ولكنها لم تأت فى الحقيقة للمجاملة، أو لم تكن المجاملة إلا وسيلة فحسب، لقد جاءت أصلاً للاعتراف، أو لتحقيق الذات عن طريق شفوى. هكذا تطوعت برواية تاريخ حياتها، نشأتها الناعمة المنعمة، حبها وزواجها الأول من كابتن إنجليزى، زواجها الثانى من ملك البطارخ وقصر الإبراهيمية، ثم فترة الانحدار، ولكن أى انحدار؟! كان بنسيون السادة، الباشوات والبكوات، أيام الحرب.

ودعتنى إلى البوح بأسرار حياتى، طوفان من الأسئلة، امرأة غريبة ومسلية ومرهقة، امرأة عند الزوال، لم أشهدها وهى عروس الصالونات، ولكن يمكن تخيلها، على ضوء الفاتنات والطغاة يمكن تخيلها، ولكنى لم أعرفها إلا وهى خرابة أثرية تتعلق عبثا بأذيال الحياة.

وعلى مائدة الإفطار تعرفت بالنزلاء. أسرة متنافرة غريبة. وإنى لفى حاجة إلى تسلية. إذا تغلبت على ما يشدنى إلى الداخل فقد أنعم بصاحب أو بصديق. لم لا؟. لنطرح جانبا عامر وجدى وطلبة مرزوق فهما من جيل راحل. ولكن ماذا عن سرحان البحيرى وحسنى علام؟. فى عينى سرحان جاذبية فطرية وهو ودود فيما يبدو رغم صوته المزعج ولكن ماذا عن اهتماماته؟. أما الآخر.. حسنى علام.. فهو مثير للأعصاب، هكذا يبدو لأول وهلة على الأقل، متغطرس الصمت والتحفظ، غاظنى بنيانه المحكم ورأسه الكبيرة المرتفع وتربعه على كرسيه كأنه حاكم، أجل حاكم ولكن بلا ولاية وبلا محتوى، ولعله لا يتبسط فى الحديث مع أحد إلا إذا وثق من أنه أتفه منه. وقلت لنفسى. على الذى يرضى بهجر الدير أن يوطن النفس على معاشرة الأراذل. وكالعادة تملكنى الانطواء حيال الغرباء. وقلت سيقولون.. سيظنون. وقديما خسرت بذلك الفرص حياتى.

* * *

دهشت عندما رأيت سرحان البحيرى داخلا علىّ فى حجرة مكتبى

بالإذاعة . تألق وجهه ببشاشة صديق قديم، ثم صافحنى بحرارة وهو يقول :

ـ كنت مارا تحت الإذاعة فقلت أسلم وأشرب القهوة!

رحبت به، وطلبت القهوة ، فقال :

ـ سأطالبك يوما بإطلاعى على أسرار الإذاعة!

بكل سرور يا رجل المصطبة العتيدة التى لم أنعم بالجلوس عليها . . وبإيجاز حدثنى عن عمله بشركة الإسكندرية وعضوية مجلس الإدارة وعضوية الوحدة الأساسية . وقلت له :

ـ يا له من حماس جميل يعد درسا للمتواكلين .

فنظر إلى بإمعان، ثم قال :

ـ إنه طريقنا للمشاركة فى بناء عالمنا الجديد .

ـ آمنت بالاشتراكية من قبل الثورة؟

ـ الحق أنى آمنت بها مع الثورة .

ودغدغنى ميل إلى مناقشة إيمانه ولكننى كبحته . وجرى الحديث إلى البنسيون فقال :

ـ إنه أسرة طريفة لا يشبع الإنسان منها .

فسألته بعد تردد :

ـ وحسنى علام؟

ـ شاب ظريف هو الآخر .

ـ يبدو كأنه أبو الهول .

ـ فى الظاهر فقط، ولكنه ظريف، وذو استعداد أصيل للعربدة!

ضحكنا معا . لم يدر أنه يعرفنى بنفسه أكثر مما يعرفنى بالآخر . وعاد يقول محذرا :

- إنه من الأعيان، بلا وظيفة، فيمكن القول إنه بلا شهادة، خذ بالك من هذه النقطة.

ثم واصل بلهجته الحكيمة المحذرة:

- إنه يملك مائة فدان، فهو يخندق فى الخطوط الأمامية، ولا يحمل شهادة علمية، وعليك أن تفهم البقية..

- ولماذا أقام فى الإسكندرية؟

- إنه ولد حكيم، يبحث عن مشروع تجارى ناجح!

فقلت ضاحكا:

- عليه أن يغير سحنته المتعجرفة وإلا هرب الزبائن.

ثم خطر لى أن أسأله عما يدعوه إلى الإقامة فى بنسيون رغم أنه قديم عهد بالإسكندرية، فتفكر قليلا ثم قال:

- فضلت بنسيونا عامرا بالناس عن شقة موحشة داخل البلد!

* * *

ليلة أم كلثوم، ليلة الخمر والطرب، فيها تزحزح النقاب عن أشياء من خبايا النفوس.

إلى سرحان البحيرى يعود أكبر الفضل فى إحيائها ولعله تكلف أقل نصيب من نفقاتها!. استرقت نظرات إلى طلبة مرزوق لم يقرأ معانيها أحد. أجل، عاودتنى ذكريات حميمة، أحلام دموية، صراعات طبقية، كتب وتجمعات، بنيان من الأفكار راسخ الأساس. راعنى ترهله وانكساره. وحركات شدقيه، وقبوعه فوق مقعده فى استسلام، وتودده إلى الثورة بلا إيمان، وكأنه لم يكن من السلالة التى شيدت قلاعها من اللحم والدماء. أخيرا جاء دوره ليمارس النفاق بعد أن خلف مجده المتدهم الذابل أمة من المنافقين. وما حسنى إلا جناح من

النسر المهيض، لكنه جناح مازال يرفرف ولا يخلو من قدرة على الطيران.

* * *

ـ أقول إن تلك التناقضات قد محيت تماما.

ـ كلا.. إنها أزيحت بتناقضات جديدة، وسوف تثبت لك الأيام..

* * *

أما سرحان البحيرى فسرى فينا كالروح بمرح حار لا يفتر وهو طيب القلب، ومخلص، لم لا، طموح بلا ريب، إنه التفسير المادى للثورة، وسرعان ما تبين لى أن عامر وجدى هو أعظم الحاضرين فتنة وأحقهم بالتقدير والحب. عرفت أنه عامر وجدى الذى راجعت العديد من مقالاته عند إعدادى لبرنامج «أجيال من الثورة». لقد استولت على أفكاره المتطورة بل والمتناقضة، وسحرنى أسلوبه الذى بدأ بالسجع وانتهى إلى بساطة نسبية لا تخلو من فخامة وجزالة. وقد سر باطلاعى على مقالاته سرورا دل على عمق إحساسه بالزوال والنسيان والجحود فأثر ذلك فى نفسى تأثيرا حادا محزنا. وقبض على القشة التى ألقيتها إليه فى الماء فمضى يقص علىّ تاريخه الطويل، جهاده المستمر، التيارات التى لاطمته، والأبطال الذين آمن بهم.

* * *

ـ وسعد زغلول؟.. لقد عبده الجيل السابق عبادة..

ـ ما قيمة المعبودات القديمة! . لقد طعن الرجل الثورة الحقيقية وهى فى مهدها..

* * *

ولكن ما بال طلبة مرزوق يرمقنى بحذر؟. لقد ضبطت عينيه المرتابتين الكارهتين فى مرآة المشجب. لا يهم. ومثله خليق بأن يخاف

خياله. وقد صببت له كأسا فشكرنى فسألته عن رأيه فى نظرات عامر وجدى التاريخية ولكنه قال كالمعتذر:

ـ ما مضى قد مضى، دعنا نتهيأ للسماع.

أعجبت بزهرة وهى تقوم على خدمتنا ولكنها لا تكاد تبتسم إلا للنادر من نكاتنا، وتجلس عند البرافان لتراقبنا من بعيد بعينين جميلتين غير مبينتين. وقد سألها حسنى علام وهى تقدم له شيئا:

ـ وأنت يا زهرة.. هل تحبين الثورة؟

فتراجعت فى حياء عن دائرة المعربدين ولكن المدام أجابت عنها إجابة شافية. وقد بدا أنه يحييها بسؤاله ويدعوها إلى المشاركة فى الحديث ولكنى لمحت فى أعماقه ضيقا يداريه فقلت:

ـ إنها تحبها بالفطرة!

ولكنه لم يسمعنى أو أنه ـ الوغد ـ تجاهلنى. وقد اختفى قبل نهاية السهرة، وأخبرت زهرة بأنه غادر البنسيون، وقد أعجبت بعامر وجدى الذى ظل ساهرا يسمع ويطرب حتى مطلع الفجر. وسألته وقد نهضنا للنوم:

ـ هل سمعت فى ماضيك صوتا كهذا الصوت؟

فأجاب باسما:

ـ إنه الشىء الوحيد الذى لانظير له فى الماضى..

* * *

رجوتها أن تجلس ولكنها لبثت واقفة مستندة إلى صوان الملابس، تنظر معى إلى الأفق الملبد بالغيوم من زجاج الشرفة المغلق، وتنتظر أن أفرغ من احتساء الشاى. وكنت أعطيها قطعة من البسكوت الذى أحتفظ بقدر منه فتقبلها عربونا لصداقة نامية. إن قلبها الأبيض يشعر بمودتى واحترامى وإعجابى وكنت بذلك سعيدا. وتساقط رذاذ،

فانسابت قطراته على الزجاج فاهتزت صورة العالم الخارجى. سألتها عن بلدتها فأجابت. خمنت السبب الذى اقتلعها من أرضها، ولكنى قلت:

ـ لو بقيت فى قريتك لسارع إليك ابن الحلال.

فقصت علىّ قصة ضارية، عن الجد والزوج العجوز.. ثم قالت:

ـ وهربت..

انزعجت للخبر فقلت:

ـ ولكنك لن تسلمى من الألسنة.

فقالت باستهانة:

ـ إنه خير مما هربت منه!

أعجبت بها لحد الإكبار ولكن أشجتنى وحدتها، غير أنها كانت تقف مليئة بالثقة كمعدن غير قابل للكسر. وكان الرذاذ قد نقش الزجاج بالغبش فاختفى العالم أو كاد.

* * *

قنبلة؟. صاروخ؟. فكرة جنونية. كلا، إنها سيارة، الأحمق، يا للشيطان إنه حسنى علام، ماذا يدفعه إلى الطيران؟. سر لا يعلمه إلا هو، كلا.. فإلى جانبه تجلس فتاة، كأنها صونيا، أهى صونيا، صونيا أو غيرها فليذهب إلى الجحيم.

وما كدت أجلس فى مكتبى حتى لحق بى زميلى وهو يقول:

ـ قبض على أصحابك أمس!

غشيتنى لحظة غيبوبة. خجلت من أن أعلق بكلمة واحدة فقال:

ـ والسبب فيما يقال...

قاطعته بحدة:

ـ لا أهمية لذلك .

ـ ثمة همس عن . .

ـ قلت لا أهمية لذلك . .

اعتمد على مكتبى بذراعيه الممدودتين وقال :

ـ كان أخوك حكيما .

فقلت وأنا أنفخ :

ـ نعم الحكيم أخى . .

وقلت لنفسى لا شك أن حسنى علام قد بلغ الآن أقصى الأرض، وأن صونيا ترتعد من الخوف واللذة .

* * *

ـ ولا كلمة، سأقتلعك من الوكر!

ـ ولكنى لم أعد طفلا . .

ـ ألم تسرع بأمك إلى القبر؟

ـ اتفقنا على ألا نذكر ذلك الماضى البعيد .

ـ ولكنى أراه حاضرا، ستذهب معى إلى الإسكندرية ولواضطررت إلى أخذك بالقوة .

ـ عاملنى كرجل من فضلك .

ـ إنك ساذج، أتظننا غافلين، لسنا غافلين .

وتفرس فى وجهى بقوة ثم قال :

ـ إنك غير جاهل، ماذا تحسبهم؟ أبطالا . . هه؟ إنى أعرفهم خيرا منك، وستذهب معى طوعا أو كرها . .

* * *

فتحت لى الباب . كنت خافق القلب جاف الحلق مشتت الفكر . برز

لى وجهها من الدهليز القاتم أبيض شاحبا. حدقت فىّ بعينين جامدتين، لم تعرفنى أول الأمر، ثم اتسعت عيناها لوقع مفاجأة غير متوقعة، وهمست:

ـ أستاذ منصور!

تنحت جانبا فدخلت وأنا أقول:

ـ كيف حالك يا درية؟

تقدمتنى إلى حجرة الجلوس، وقد أضفى منظرها الحزين على كل شىء كآبة وتجهما. جلسنا على مقعدين متقاربين، وعلى الحائط أمامنا صورته تطل علينا من إطار أسود وهو يسدد إلينا الفوتوغرافيا كأنما يلتقط لنا صورة، تبادلنا نظرات صامتة حزينة، ثم سألت:

ـ متى جئت إلى القاهرة؟

ـ جئت من المحطة رأسا.

ـ إذن علمت..؟

ـ أجل، فى مكتبى، ثم أخذت ديزل الساعة الثانية مساء.

ونظرت إلى صورته وأنا أتشمم رائحة التبغ الذى يدخنه وهى مستكنة ماتزال فى جو الحجرة، ثم سألت:

ـ هل قبض عليهم جميعا؟

ـ أظن ذلك.

ـ وأين ذهبوا بهم؟

ـ لا أدرى.

تشعث شعرها فى إهمال، وشحبت بشرتها البيضاء، وضعضعت عينيها نظرة ذابلة مسهدة.

ـ وأنت؟

ـ كما ترى.

وحيدة بلا مورد. كان أستاذا مساعدا بكلية الاقتصاد ولكن بلا مدخرات. كل شيء واضح وضوح الكآبة التي تخنق المكان كله.

ـ درية، أنت زميلة قديمة، وهو صديق، أعز صديق رغم كل شيء.

ثم استجمعت شجاعتي وواصلت:

ـ أنا موظف، ولي إيراد لا بأس به أيضا، ولست مسئولا عن أحد كما تعلمين.

حركت رأسها في ضيق. وتمتمت:

ـ ولكنك تعلم أنني لا..

قاطعتها بحرارة:

ـ لا أظنك ترفضين مساعدة تافهة من صديق قديم.

ـ الطبيعي أن أجد عملا مناسبا.

ـ عندما يتيسر ذلك، ولن يتيسر قبل مضي وقت.

مازالت الحجرة مطبوعة بروحه. كعهدي بها في الأيام الخالية. الكنبة الاستديو ومكتبتها العامرة، المسجل، الجرامفون، التليفزيون والراديو، الفوتوغرافيا والأفلام وألبوم الصور، ولكن أين الصورة التي جمعت بيننا في أوبرج الفيوم؟. لا شك أنه رمى بها في لحظة الغضب. وكانت عينانا تلتقيان ثم تنفصلان في حذر، ولا شك أن مشاعر متجانسة طاردتنا، وأن ذكريات مشتركة ناوشتنا، وأن الماضي والحاضر والمستقبل يتمثل في صورة طريق مجهول. وسألتها:

ـ لديك خطة؟

ـ لم أجمع أفكاري بعد.

ترددت قليلا ثم سألت:

ـ ألم تفكرى فى الكتابة إلى؟

ترددت قليلا ثم أجابت :

ـ كلا .

ـ ولكن احتمال حضورى لا شك خطر ببالك .

لم تجب . قامت فغابت دقائق ثم رجعت بالشاى ، وأشعلنا سيجارتين . خيل إلى أنى أسترجع رائحة قديمة مفتقدة . وكان لابد مما ليس منه بد فقلت وعذاباتى القديمة تجتاحنى :

ـ أظنك علمت بمحاولاتى الفاشلة فى العودة؟

لازمت الصمت فقلت :

ـ لم ألق أى تشجيع ، وهذا أخف تعبير يمكن اختياره .

تمتمت برجاء :

ـ لننس الماضى .

ـ حتى فوزى نفسه تجاهلنى !

ـ قلت لننس الماضى .

ـ كلا يا درية .

ثم قلت بامتعاض وألم :

ـ ولست أجهل ما قيل عنى ، قالوا إننى أسعى للعودة لأعمل عينا لأخى !

هتفت بتبرم وضيق :

ـ ألا يكفينى ما بى من حزن !

اعتذرت إليها بنظرة ذليلة وقلت :

ـ درية إنك تدركين شعورى تماما .

ـ إنى ممتنة .

فهتفت كالملدوغ :

ـ أعنى شعورى بأننى كان يجب أن أكون معهم!

فقالت بحزن :

ـ لا جدوى من تعذيب نفسك .

ـ أود . . أود أن أعرف رأيك فى بصراحة؟

ساد الصمت فترة قصيرة مشحونة بالعذاب ثم تمتمت :

ـ لقد استقبلتك فى بيتى ، أو إن شئت فى بيته ، وفى هذا الكفاية!

تنهدت بصوت مسموع . لم يطمئن قلبى تماما . وكنت على ثقة من أنى سأرد إلى الجحيم كما كنت ، ولكن لم يكن الوقت مناسبا لتبرير الأخطاء . وقلت :

ـ سأزورك بين حين وآخر ، وعليك أن تكتبى لى لدى أى طارئ .

* * *

أرهقنى السفر ذهابا وإيابا فقررت البقاء فى البنسيون . انضممت إلى الجالسين حول الراديو فى المدخل ، ومن حسن الحظ أنهم كانوا أحب أهل الدار إلى نفسى : عامر وجدى والمدام وزهرة . شغلتنى أفكارى عن الحديث حولى حتى سمعت المدام وهى تقول لى :

ـ إنك دائما غائب عنا بأفكارك!

فقال عامر وجدى وهو يرمقنى بمودة :

ـ ذاك شأن الأذكياء!

وظل يرمقنى بعينيه الغائمتين ثم تساءل :

ـ ألا تفكر فى استخلاص مادة كتاب من برامجك الثقافية؟

فقلت دون مبالاة بالحقيقة :

ـ إنى أفكر فى كتابة برنامج عن تاريخ الخيانة فى مصر!

ـ الخيانة! . . يا له من موضوع غزير متشعب!

وضحك طويلا ثم عاد يقول :

ـ عليك أن ترجع إلى، سأمدك بالمراجع والذكريات.

* * *

ـ أنا أحبك، وأنت تحبيننى، دعينى أكلمه.

ـ إنك مجنون!

ـ إنه عاقل ومعقول وسيفهمنا تماما، وسيغفر لنا.

ـ لكنه يحبنى، ويعدك صديقه الأوحد، ألا تفهم؟

ـ إنه يكره الزيف، إنى أفهمه تماما.

* * *

واستمر عامر وجدى قائلا :

ـ برنامج عن الخيانة، يا له من برنامج، ولكن احرص فى النهاية على أن تؤلف كتابا وإلا نسيك الناس كما نسونى، لم يبق من الذين لم يدونوا أفكارهم إلا سقراط.

وكانت المدام تتابع أغنية يونانية طلبتها فيما يطلبه المستمعون، أغنية على لسان عذراء تعدد المزايا التى تتمناها فى فتى الأحلام أو هكذا قالت المدام. إن منظرها وهى تستمع إلى الأغنية مغمضة العينين من الطرب منظر مؤثر حقا، خلاصة مبكية مضحكة لحب الحياة.

وقال عامر وجدى :

ـ وقد خلد بفضل تلميذه أفلاطون. ولكن غريب أن رضى بتجرع السم متجاهلا فرص الهرب!

فقلت بمرارة :

ـ أجل، ورغم أنه لم يكن يعانى شعورا بالإثم أو الخطأ.

ـ وكم من أناس إذا قارنتهم بسقراط اقتنعت بأنهم لا يمكن أن يرجعوا معه إلى أصل جنسى واحد!

فقلت بمرارة وجنون:

ـ أولئك هم الخونة.

ثمة حقائق وثمة أساطير، الحياة يا بنى محيرة حقا.

ـ ولكنك من جيل الإيمان؟

فضحك وهو يقول:

ـ الإيمان.. الشك.. إنهما مثل النار والليل.

ـ ماذا تعنى من فضلك؟

فسكت لحظات ثم قال:

ـ أعنى أنهما لا ينفصلان. وأنت يا بنى من أى جيل؟

فقلت بضجر:

ـ العبرة بما نعمل لا بما نفكر، وإذن فأنا مجرد مشروع.

وضحكت المدام قائلة:

ـ نعمل.. نفكر.. ما هذا؟!

وضحك العجوز أيضا وقال:

ـ فى كثير من الأحيان يخيل إلى المفكر المرهق أن أثمن ما فى الوجود يتلخص فى أكلة شهية وامرأة جميلة.

قهقهت المدام وقالت:

ـ برافو.. برافو.

وضحكت زهرة أيضا فسمعت ضحكتها لأول مرة فانجابت عنى الهموم إلى حين. وأعقب ذلك دقائق صمت فتجلى صوت الهواء وهو يدوى فى الخارج ويلطم الجدران فتصطك النوافذ المغلقة. وعاودنى القلق والكآبة فقلت مخاطبا عامر وجدى:

ـ أن تؤمن وأن تعمل فهذا هو المثل الأعلى، ألا تؤمن فذاك طريق آخر اسمه الضياع، أن تؤمن وتعجز عن العمل فهذا هو الجحيم.

ـ أجل، إنك لم تشهد سعد فى شيخوخته وهو يتحدى النفى والموت.

نظرت إلى زهرة، المنفية الوحيدة، وهى تجلس مفعمة ثقة وأملا فغبطتها، بل حسدتها!.

* * *

زرت درية بعد مضى أسبوع من الزيارة الأولى. استعاد مسكنها أناقته المعهودة، وتبدت هى فى مظهر لا تعوزه العناية، ولكنى قرأت فى عينيها السقم. أجل، وحيدة وبلا عمل أو أمل، قلت لها:

ـ أرجو ألا تضايقك زياراتى.

فقالت بصوت لم أتبين فيه معنى:

ـ على الأقل فهى تشعرنى بأننى مازلت على قيد الحياة.

تقبض قلبى ألما. تخيلت الحال على حقيقتها الخشنة الجرداء. وددت أن أعرب عن عواطفى ولكن الماضى عقد لسانى. واتفق رأينا على أن فى العمل النجاة من السقم ولكن كيف؟. إنها تحمل ليسانس آداب فى اللغات القديمة ولكن ثمة عقبات لا يستهان بها.

ـ لا تحبسى نفسك فى البيت.

ـ فكرت فى ذلك ولكنى لم أتحرك بعد.

ـ لو كان فى الإمكان أن أزورك كل يوم.

ابتسمت. تفكرت. ثم قالت:

ـ يحسن أن نتقابل خارج البيت!

لم أرتح لقولها ولكنى اقتنعت به فقلت:

ـ فكرة مقبولة! .

وتم اللقاء الثالث فى حديقة الحيوان. طالعنى وجه الزمان الأول عدا نظرة العين. بجماله ورونقه وإن خلا من روح المرح والبهجة. وسرنا دقائق إلى جانب السور المطل على طريق الجامعة، طريق ذكريات مشتركة لا يمكن أن تنسى. وقالت:

ـ إنك تكلف نفسك ما لا يطاق.

ـ أنت لا تدرين كم أنى سعيد بذلك.

أكان أجدر بى أن أصرح بالسعادة المزعومة؟. وعدت أقول:

ـ الوحدة يا درية، إنها شر ما يبتلى به إنسان.

قلت ذلك بنبرة المجرب، وربما عن قصد، فقالت:

ـ لم أزر الحديقة منذ أيام الجامعة!

ـ فقلت دون مبالاة بجملتها الاعتراضية:

ـ إنى وحيد أيضا، وأعرف مذاق الوحدة.

بدت كالمحاصرة. ضايقنى ذلك وزاد عواطفى تعقيدا والتواء. ورغم ذلك أوشك الفيضان أن يجرف السد. وعندما التقت عينانا خيل إلى أنها جفلت. وإذا بها تقول:

ـ يحزننى أننى أتريض على حين أنه.. هناك.

ولحظت وجومى فتساءلت:

ـ مالك؟

ـ لا أكاد أتحرر من الإحساس بالذنب.

ـ أخشى أن تجد فى صحبتى مصدرا للعذاب.

ـ كلا. ولكن ذلك الإحساس الجهنمى يتغذى على اليأس.

ـ علينا أن نجد فى اللقاء شيئا من العزاء.

ـ واليأس يدفع للتهور، ولأن يداوى المريض الداء بالداء!

ـ ماذا تعنى؟

ـ أعنى.

ترددت قليلا ثم واصلت:

ـ أعنى . . أن تعذرى حماقتى لو قلت لك يوما تحت دفعة تيار جارف إنى أحبك، كما أحببتك فى زماننا الأول.

وأفقت من تهورى. أى حماقة، أى جنون، ما أبغى؟. كنت مندفعا وراء غاية محددة. كمن يلقى بنفسه فى الماء ليطفئ ملابسه المشتعلة. وقالت بعتاب:

ـ منصور!

فتراجعت كمن تلقى لطمة شديدة، وقلت بخذلان:

ـ لا أدرى ماذا قلت، ولا كيف قلته. ولكن ثقى من أننى لا يمكن أن أسعى للسعادة!

وقلت لنفسى وأنا أستقل الديزل «فى الرسائل يجد الإنسان شجاعة أكثر».

* * *

استيقظت على ضوضاء وصخب. . أهو صوت يند عن الصراع الذى يتلاطم فى باطنى؟. كلا . . هناك صراع من نوع آخر فى البنسيون. غادرت حجرتى فرأيت المنظر الأخير من معركة. أدركت من آثارها المطبوعة على الوجوه أن سرحان وامرأة غريبة وزهرة كانوا أبطالها أو ضحاياها. ولكن من المرأة؟. . وما علاقة زهرة بالأمر كله؟

وجاءتنى زهرة بالشاى كالعادة، فراحت تقص على الواقعة كما وقعت، باندفاع امرأة وراء سرحان وهو عائد إلى البنسيون، واشتباكها معه فى عراك. وكيف جرت إلى العراك وهى تخلص بينهما.

ـ ولكن من المرأة يا زهرة؟

ـ لا أعرف.

ـ سمعت من المدام أنها كانت خطيبة لسرحان؟

ترددت مليا ثم قالت:

ـ ربما.

ـ ولم انقضت عليك أنت؟

ـ قلت إنى أردت التخليص بينهما.

ـ ولكن ذلك لا يبرر اشتباكها معك؟

ـ حصل.

نظرت إليها برقة ومودة ثم سألتها:

ـ هل بينك وبين..

لكنها تجاهلت سؤالى فقلت:

ـ لا عيب فى ذلك، وأنا صديق، وباسم الصداقة أسألك.

فأحنت رأسها بالإيجاب.

ـ إذن فأنت مخطوبة وتخفين عنى؟

حركت رأسها نفيا فقلت:

ـ لم تعلن الخطوبة بعد؟

وأقلقنى سكوتها فسألت:

ـ متى تعلن؟

أجابت بثقة:

ـ كل شىء بأوانه.

هجس هاجس الخوف فى صدرى فقلت:

ـ لكنه هجر الأخرى كما رأيت؟

فقالت ببراءة :

ـ إنه لا يحبها .

ـ فلم خطبها إذن؟

نظرت إلى بإشفاق ثم تشجعت قائلة :

ـ لم تكن فى الحقيقة خطيبته ، إنها امرأة ساقطة!

ـ الخيانة هى الخيانة على أى حال!

وقع القول من مسمعى موقعا غريبا فاجعا فوجدت له فى فمى طعم السم وعواقبه . وحنقت على سرحان ضمن حنقى على نفسى فلعنته ألف لعنة .

وعندما جاءتنى فى نفس الموعد بعد ذلك بأيام قالت لى بروح مرحة عالية :

ـ أستاذ . . هل أبوح لك بسر؟

نظرت إليها مستطلعا ، ومتوقعا المزيد عن علاقتها بسرحان ولكنها قالت لى :

ـ سأتعلم!

لم أفهم فى الواقع شيئا وظللت أنظر إليها مستطلعا . فقالت :

ـ اتفقت مع جارتنا ست علية محمد المدرسة على تعليمى .

ذهلت . . وهتفت :

ـ حقا؟

ـ نعم . . اتفقنا على كل شىء . .

ـ شىء رائع يا زهرة ، كيف فكرت فى ذلك؟

قالت بفخار :

ـ فكرت فيه بنفسى . .

ـ نعم . . ولكن ماذا جعلك تفكرين فيه؟

ـ قلت لن أبقى جاهلة إلى الأبد، ثم إن لى غرضا آخر!

غرض آخر؟

ـ نعم . . سأتعلم مهنة!

رمقتها بإكبار وسعادة وهتفت :

ـ رائع . . رائع . . رائع يا زهرة . .

لبثت منفعلا بالسعادة والإكبار وأنا منفرد بنفسى فى الحجرة المغلقة . كان المطر يهطل، وهدير الأمواج يتتابع فى دفعات مدوية متقطعة راطنا بلغته المجهولة . ثم مضى الانفعال يهدأ وينخفض ويبرد حتى انداح فى مستنقع من ماء آسن يغشاه زبد الكآبة . إن الصعود يذكر بالهبوط، والقوة بالضعف، والبراءة بالعفن، والأمل باليأس . وللمرة الثانية لم أجد من أصب عليه جام غضبى إلا شخصية سرحان البحيرى!

* * *

اخترنا مجلسنا تحت شجرة كافور بكازينو الشاطئ. وكانت الشمس المائلة عن السمت تريق علينا شعاعها الدافىء فتذيب برد القاهرة القارص . وقالت وهى تتفادى طيلة الوقت من تلاقى عينينا :

ـ ما كان يجب أن أجىء!

فقلت بطمأنينة :

ـ ولكنك جئت فحسم مجيئك التردد!

ـ لم يحسم شيئا، ثق من ذلك!

نظرت إليها وبى تصميم على القفز إلى الهاوية :

ـ إنى مقتنع بأن مجيئك . .

ـ كلا ، المسألة أنى لم أرض أن أبقى وحيدة مع رسائلك .

ـ لا أظن أن رسائلى تتضمن جديدا .

ـ ولكنك أرسلتها لشخص لا وجود له!

فلمست يدها المطروحة على المائدة كأنما لأثبت لها الوجود ولكنها سحبتها وهى تقول:

ـ لقد أرسلتها بعد زمانها بأربع سنوات!

ـ إنها تتضمن أشياء تجاوز بطبعها الزمان والمكان!

ـ ألا ترى أننى ضعيفة وتعيسة!

ـ وأنا كذلك، إنى فى رأى أصحابنا جاسوس. وفى رأى نفسى خائن. ولا ملجأ لى إلا أنت..

ـ أى دواء!

ـ لا يبقى غيره إلا الموت أو الجنون.

نفخت فى توتر معذب ثم تمتمت:

ـ إنى خائنة من قديم الزمان.

ـ بل كنت مثال الإخلاص الزائف..

ـ تعريف آخر للخيانة التى مزقتنى..

فقلت بغضب:

ـ إننا نتمزق بلا سبب حقيقى، وذاك جوهر المأساة..

ونظرنا إلى النيل بلونه الرصاصى وأمواجه شبه الساكنة. ثم تسللت يدى من وراء المائدة إلى يدها فاحتوتها بحنان، وشدت قليلا لتسكت مقاومتها الضعيفة. وهمست:

ـ لا يجوز أن نذعن لرواسب غير صحية!

فقالت بحزن:

ـ إننا نتدهور معا بأكثر مما تصورت.

ـ لكنا سنخرج من التجربة كالمعدن النقى..

ووجدت رغبة طاغية تدفعنى إلى الحضيض كأنما الحضيض غاية منشودة تطلب لذاتها، أو كأنما الجحيم أمسى هدف الإنسان النهم إلى السعادة.

* * *

التقيت فى محطة مصر بصديق قديم. صحفى وذى ميول تقدمية ولكنه لم يشتغل بالسياسة. جلسنا فى البوفيه، أنا فى انتظار الديزل وهو فى انتظار شخص قادم من القنال. قال:

ـ على أن أشكر هذه الفرصة الطيبة فقد كنت أود أن أقابلك..

حسن، ماذا تريد، إننى لم أره منذ تعيينى فى الإسكندرية. وإذا به يسألنى:

ـ ماذا يجىء بك إلى القاهرة؟

حدجته بدهشة. أجل.. وكان يدرك أن سؤاله سيثير دهشتى.. فقال:

ـ لتشفع صداقتنا لصراحتى، يقولون إنك تجىء من أجل مدام فوزى!

لم أنزعج الانزعاج الذى توقعه. فقد ساورتنا ـ أنا ودرية ـ الشكوك من قبل، فقلت بفتور:

ـ إنها فى حاجة إلى صديق كما تعلم.

ـ وأعلم أيضا..

فقاطعته باستهانة:

ـ وتعلم أننى أحبها من قديم!

فتساءل بإشفاق:

ـ وفوزى؟!

ـ إنه أعظم مما يظن الآخرون .

فقال بضيق :

ـ إني ـ كصديق ـ غير سعيد بما يقال!

ـ حدثنى عما يقال؟

ولكنه سكت . . فقلت بعصبية :

ـ إننى جاسوس ، إننى هربت فى الوقت المناسب ، ثم تسللت إلى بيت الصديق القديم!

ـ لم أقصد إلا . .

ـ وأنت تصدق ذلك!

ـ لا . . لا . . ولن أسامحك إذا توهمت ذلك . .

* * *

تساءلت فى طريق عودتى إلى الإسكندرية : هل أستحق نعمة الحياة؟ . إنى أبحث عن حل لمتناقضات شتى ، حل عسير فيما يبدو . فلم لا يكون الموت هو الحل الأخير؟ . وأردت أن أجلس بعض الوقت فى التريانون ولكننى لمحت من الخارج سرحان البحيرى وحسنى علام جالسين يتحادثان فعافتهما نفسى وعدلت عن الدخول . كانت سحب متقاربة الألوان تركض بسرعة ملحوظة وهى دانية ، والهواء يهب فى دفعات منعشة . سرت والكورنيش متحديا وقد ارتفع الماء وتطاير رشاشه إلى الطريق . وقلت لو أننى كنت أملك أشياء ثمينة لحطمتها . وقلت إن التوازن لن يرجع إلى الأشياء إلا بزلزال شامل .

وجاءتنى زهرة بالشاى . قالت لى باعتداد الواثق من اهتمامى بشئونها :

ـ جاء أهلى ليأخذونى ولكننى رفضت . .

ورغم فتور مشاعرى عامة فإن اهتمامى بزهرة لم يمت ، فقلت لها :

ـ أحسنت!

ـ حتى الرجل الطيب، عامر بك، نصحنى بالرجوع إلى القرية..

ـ إنه يخاف عليك، هذا كل ما هنالك.

فرمقتنى بإمعان ثم قالت:

ـ ولكنك لا تبتسم كعادتك!

ابتسمت إليها بلا روح فقالت:

ـ أنا فاهمة!

ـ فاهمة؟

ـ نعم، سفرك كل أسبوع وانشغال بالك؟

ضحكت على رغمى فقالت بسعادة:

ـ أتمنى أن أشهد فرحك!

ـ ربنا يسمع منك يا زهرة..

وتم التفاهم على ضوء نظرة متبادلة. وأشارت بيدها كأنما تدعونى إلى المرح فقلت:

ـ هناك شخص ينغص علىّ صفوى..

ـ من هو؟

ـ شخص خان دينه!

فحركت يدها مستنكرة.

ـ وخان صديقه وأستاذه!

واصلت حركتها الاستنكارية فسألتها:

ـ هل يغفر له الذنب أنه يحب؟

فقالت مستفظعة:

ـ حب الخائن نجس مثله!

انغمست فى العمل. وكلما اضطربت أعصابى أو تشتت فكرى سافرت إلى القاهرة. هنالك سعادة الحب. ولكن أى سعادة؟ لقد سعدت حقا عندما كفت عن المقاومة فتركت يدها فى يدى. ولكنى عانيت بعد ذلك شعورا محموما قلقا، وسيطرت على فكرة غريبة وهى أن الحب طريق الموت، وأننى بالإفراط فى كل شىء قد أبلغ نهاية الطريق. وقلت لها مرة:

ـ أحببتك من قديم، إنك تذكرين ذلك، ثم فوجئت بخطوبتك!

فقالت بحزن:

ـ إنك تبدو مترددا فيسهل إساءة فهمك.

ثم قالت بنبرات اعتراف:

ـ قبلت فوزى تأثرا بشخصيته. إنه كما تعلم يستحق كل إكبار..

وكان يجلس حولنا كثيرون من العشاق فسألتها:

ـ وهل نحن سعداء؟

فحدجتنى باستغراب وقالت:

ـ يا له من سؤال يا منصور!

ـ أعنى ربما ساءك أننى جعلت منك حديث المجالس!

ـ لا يهمنى ذلك أما فوزى..

أرادت بلا شك أن تردد ما قلته مرات عن سعة إدراكه وكبر قلبه ولكنها سكتت. وكرهت إدارة الأسطوانة من جديد. وإذا بى أسألها:

ـ درية هل داخلك الشك فىّ كالآخرين؟

قطبت فى استياء لأنها حذرتنى أكثر من مرة من طرق ذلك الموضوع ولكنى قلت برغبة ملحة:

ـ لو فعلت لكان أمرا طبيعيا!

تحولت إلى محتجة وسألت:

ـ لم تنبش عن العذاب؟

تراجعت باسما وأنا أقول:

ـ طالما أسأل نفسى عما دعاك للخروج عن الإجماع؟

فقالت بضجر:

ـ الحق أنه ليس لك طبيعة الخونة!

ـ وما طبيعة الخونة؟ إنى ضعيف، إذعانى لأخى ضعف لا شك فيه، وإنى أرشح الضعفاء للخيانة..

تناولت يدى بين يديها وقالت برجاء!

ـ لا تعذب نفسك.. لا تعذبنا..

وقلت لنفسى إنها لا تدرى أنها أداة من أدوات التعذيب!

* * *

دخلت المدام حجرتى فأيقنت من أننى سأسمع أنباء. إنها تطير بالأخبار ـ كفراشة ـ من ناحية إلى أخرى. حسن. أما سمعت يا مسيو منصور؟!. محمود أبو العباس بياع الجرائد خطب زهرة، ولكنها رفضته!

ـ هو الجنون نفسه يا مسيو منصور!

فقلت ببساطة:

ـ إنها لا تحبه يا مدام..

ـ قلبها سائر فى طريق خاطئ!

وغمزت بعينها. وقلت لنفسى الويل له إذا غدر بها. وتملكتنى بغتة فكرة غريبة، أو رغبة منحرفة، وهى أن يغدر بها لأنزل به العقاب الذى يستحقه!

ومالت نحوى هامسة :

ـ انصحها من فضلك، ستعمل برأيك . . إنها تحبك . .

وأثارنى فعل الحب فبذلت أقصى جهدى لكى أكظم غضبى .

* * *

ـ إنها من أصل طيب، شبه أرستقراطى، ولكنها لم تعد قديسة، للعمل ظروفه القهرية كما تعلم، ولولاى لأخليت شقتها وصودرت أموالها . .

* * *

الريح تسفع النوافذ بوابل المطر . هدير الأمواج يقتحم أعماقى . لم أشعر بدخول زهرة حتى وضعت قدح الشاى على الترابيزة أمامى . رحبت بها لتنتشلنى من أفكارى السوداء . تبادلنا ابتسامة . قدمت لها قطعة البسكوت . وقلت ضاحكا :

ـ ها هو ثانى عريس ترفضينه !

رمقتنى بحذر فواصلت قائلا :

ـ أتريدين رأيى يا زهرة؟ . إنى أفضل «محمود» عَلَى «سرحان» !

فقطبت قائلة :

ـ لأنك لا تعرفه . .

ـ وهل عرفت الآخر كما يجب؟

فقالت بحدة :

ـ لا أحد يصدق أننى كفء له !

ـ قولى ذلك لغير أصدقائك !

ـ إنه لا يفرق بين المرأة وبين الحذاء !

وضحكت فقصت على نادرة من تصرفاته وآرائه . فقلت :

ـ إنك تستطيعين أن تردى له التحية بأحسن منها . .

ولكنها تحب سرحان وستظل تحبه حتى يتزوج بها أو يغدر بها .

وقلت :

ـ زهرة . . إنى أحترم رأيك وفعلك، بودى أن أهنئك فى القريب!

* * *

تخلفت عن السفر إلى القاهرة لإنجاز أعمال عاجلة وهامة. اتصلت بى درية بالتليفون مستغيثة من وحدتها المضنية. ولما تلاقينا فى الأسبوع التالى قالت لى بعصبية :

ـ جاء دورى لمطاردتك!

فقبلت يدها، ونحن نستقل بحجرة منفردة بفلورينا، ثم أوجزت لها أخبارى المتضمنة عذرى. وكانت قلقة متوترة الأعصاب فأكثرت من التدخين، ولم أكن على حال أحسن. وقلت لها :

ـ كنت أدفن نفسى فى العمل ولكنى أطفو رغم إرادتى ويهمس لى صوت غريب بأن ثمة خطأ فى العمل، أو أن أمرا هاما فاتنى تدبره، وكثيرا ما أكتشف أننى نسيت شيئا ضروريا فى البنسيون أو فى المكتب . .

فقالت بلهفة :

ـ ولكننى وحيدة، ولم أعد أحتمل وحدتى . .

ـ نحن فى دوامة، ولا نحرك يدا لحل مشكلتنا . .

ـ والعمل؟

تفكرت قليلا. مطاوعا المنطق وحده. ولكن أى منطق؟. لا منطق لمن تعتصره الانفعالات. كأنما كنت أنقب عن تحديات جديدة. قلت :

ـ لو سألنا العقل لأجاب بأن علينا أن نفترق أو أن نسعى إلى الطلاق!

اتسعت عيناها الرماديتان فى فزع، ربما لاستجابتها لا لنفورها، وهتفت:

ـ الطلاق!

فقلت بهدوء:

ثم نبدأ حياة جديدة. .

ـ تصرف خارق!

ـ لكنه طبيعى، وأخلاقى إن شئت. .

أسندت رأسها إلى يدها ثم سكتت معلنة إفلاسها، فقلت:

ـ ألم أقل إننا لا نحرك يدا؟

ثم بعد فترة صمت:

ـ خبرينى عن فوزى لو كان مكانى؟

فقالت بصوت متهافت:

ـ أنت تعلم أنه يحبنى. .

ـ ولكنه لن يبقى عليك إذا علم أنك تحبيننى. .

ـ ألا يتسم تفكيرك بطابع نظرى جدا؟

ـ ولكنى أعرف فوزى، وهذا واقع!

ـ تصور . . تصور أن يقول. .

ـ إنك تخليت عنه وهو فى السجن، أليس كذلك؟ لا قيمة لذلك تتخلين عنه لا عن مبادئه. .

تخيلته وهو مستلق على الكنبة الاستديو، يرمقنى بعينيه اللوزيتين السوداوين، ويدخن غليونه، يعالج هموما لا حصر لها ولكنه لا يشك فى سعادته الزوجية! وسألتنى:

ـ فيم تفكر؟

ـ فقلت :

ـ إن الحياة الحقة لا تجود بنفسها إلا للأكفاء . .

ثم تناولت يدها وأنا أقول :

ـ لنشرب كأسين ولنكف عن التفكير . .

* * *

غبت عما حولى . صهرنى الغضب . مذ علمت بتهجم حسنى علام على زهرة صهرنى الغضب . كان يجلس معى فى المدخل عامر وجدى والمدام ولكنى لم أسمع من حديثهما إلا وشا . وعلمت أيضا بمشاجرة سرحان وحسنى فتمنيت لو أنها استمرت حتى الموت ، الموت لكليهما . تمنيت أيضا أن أؤدب حسنى ولكن لم يداخلنى شك فى قدرته على سحقى فكرهته حتى الجنون . وغادرت المدام المكان فنبهتنى إلى ما حولى . نظرت إلى عامر وجدى فرأيته يرنو إلىّ باهتمام ومحبة فتخففت من انفعالات القتال المحتدمة فى صدرى ، وتلقيت فكرة عجيبة بأن الرجل العجوز كان صديقا حميما لأبى أو لجدى . وراح يسألنى عن أحلامى فقلت باقتضاب :

ـ يخيل إلى أنه لا مستقبل لى .

فابتسم ابتسامة مجرب لكل شيء ، وكأنما مر به سخطى مرات بشتى الصور ، ثم قال :

ـ الشباب عدو الرضى ، هذا كل ما هنالك .

ـ لقد استغرقنى الماضى فبت أعتقد أنه لا يوجد مستقبل !

قال بجدية وقد زايل الابتسام وجهه :

ـ ثمة صدمة ، عثرة ، سوء حظ ، ولكنك تستحق الحياة بكل جدارة . .

كرهت أن أناقش معه همومى، حتى المشروع منها، فتساءلت متهربا :

ـ ماذا عن أحلامك أنت يا أستاذ؟

ضحك طويلا ثم قال :

ـ نوم الشيوخ يقل للدرجة التى تنعدم فيها الأحلام، غير أنى أتمنى ميتة رفيقة .

ـ إذن فالموت أنواع؟

ـ ماأسعد الرجل الذى نام عقب سهرة طيبة ثم لم يصح إلى الأبد!

فسألته مأخوذا بلذة محادثته :

ـ أتعتقد أنك ستبعث ذات يوم؟

ضحك مرة أخرى وقال :

ـ أجل، إذا جمعت برامجك فى كتاب!

* * *

يعجبنى جو الإسكندرية . . لا فى صفائه وإشعاعاته الذهبية الدافئة . . ولكن فى غضباته الموسمية . . عندما تتراكم السحب وتنعقد جبال الغيوم . . ويكتسى لون الصباح المشرق بدكنة المغيب . . ويمتلئ رواق السماء بلحظة صمت مريب . . ثم تتهادى دفقة هواء فتجوب الفراغ كنذير أو كنحنحة الخطيب . عند ذاك يتمايل غصن أو ينحسر ذيل . . وتتتابع الدفقات ثم تنقض الرياح ثملة بالجنون . . ويدوى عزيفها فى الآفاق . . ويجلجل الهدير ويعلو الزبد حتى حافة الطريق . . ويجعجع الرعد حاملا نشوات فائرة من عالم مجهول . . وتندلع شرارات البرق فتخطف الأبصار وتكهرب القلوب . . وينهل المطر فى هوس فيضم الأرض والسماء فى عناق ندى . . عند ذاك تختلط عناصر الكون وتموج وتتلاطم أخلاطها كأنما يعاد الخلق من جديد . .

وعند ذاك فقط يجلو الصفاء ويطيب . . إذا انقشعت الظلمات . . وأسفرت الإسكندرية عن وجه مغسول . . وخضرة يانعة . وطرقات متألقة . ونسائم نقية . وشعاع دافئ . وصحوة ناعمة . .

عايشت العاصفة من وراء الزجاج . حتى نعمت بالصفاء . شيء حدثني بأن تلك الدراما إنما تحكي أسطورة مطمورة في قلبي . . . وتخط طريقا مازال غامض الهدف . . أو تضرب موعدا في غمغمة لم تفهم بعد .

دقت الساعة الكبيرة فوضعت أصبعي في أذني حتى لا أعرف الوقت . ثم ترامت إلي أصوات غريبة . استمرت في إصرار وارتفعت . مشاحنة؟ . . شجار؟ . إن الأحداث التي تقع في البنسيون تكفي قارة بأكملها . وحدث قلبي بأن زهرة محورها كالعادة . وفتح باب بعنف فوضحت الأصوات تماما . زهرة وسرحان! . وثبت إلى الباب ففتحته . رأيتهما في الصالة وجها لوجه كديكين والمدام تحول بينهما . وكان سرحان يصرخ في غضب هادر :

ـ أنا حر . . أتزوج بمن أشاء . . سأتزوج من علية!

زهرة غاضبة كبركان، عز عليها أن يعبث بها، أن تنهار آمالها ثم ترتد وهي الخاسرة . إذن قد نال أربه ويريد أن يولي وجهة أخرى . اقتربت منه ثم أخذته من يده عائدا إلى حجرتي . كان ممزق البيجاما في أكثر من موضع، دامي الشفتين . وراح يصيح :

ـ شريرة متوحشة!

فطالبته بالهدوء ولكنه تمادى في الغضب وهو يقول :

ـ تصور . . تريد حضرتها أن تتزوج مني!

فعدت أنصحه بالهدوء فصاح :

ـ مجنونة فاجرة!

وضقت به فسألته :

ـ لم أرادت أن تتزوج منك؟

ـ اسألها . . اسألها . .

ـ إنى أسألك أنت . .

نظر إلىّ لأول مرة فى انتباه فقلت :

ـ لابد من سبب يبرر طلبها؟

تحول الانتباه فى عينيه إلى حذر ثم سألنى :

ـ ماذا تعنى؟

فقلت بغضب :

ـ أعنى أنك وغد . . .

ـ أستاذ!

فبصقت فى وجهه وأنا أصرخ :

ـ على وجهك ، ووجه كل وغد ، وكل خائن . .

وسرعان ما اشتبكنا فى عراك عنيف . بيد أن المدام اقتحمت الحجرة قبل أن يستفحل الضرب .

دخلت بيننا وهى تقول :

ـ من فضلكم . لقد ضقت بذلك كله . سووا خلافاتكم فى الخارج لا فى بيتى!

وذهبت به خارج الحجرة .

* * *

مظلم الرأس، مثقل القلب . مشتت الفكر ، هكذا ذهبت إلى دار الإذاعة . ولما دخلت حجرتى رأيت امرأة جالسة أمام مكتبى . امرأة؟! درية! . أجل درية دون غيرها . عقدت الدهشة لسانى ، تسمرت أمامها لحظات، ثم انجابت الظلمات عن رأسى فهتفت :

ـ درية!

وابتسمت . يجب أن أبتسم . بل يجب أن أتهلل . وأخذت يدها بين يدى فضغطت عليها بحنو، واجتاحتنى عاطفة ثرية بالفرح، اكتسحت القلق والمخاوف التى تنهش قلبى، وقلت:

ـ يا لها من مفاجأة . . أى سعادة يا درية . .

قالت وهى تطالعنى بوجه شاحب:

ـ كان يمكن أن أنتظر يومين حتى نلتقى ولكننى لم أستطع الانتظار، واتصلت بك تليفونيا فلم أجدك!

وساورنى قلق لم أعرف كنهه . جئت بكرسى فجلست قبالتها وأنا أقول:

ـ ليكن خيرا ما جاء بك يا درية . .

قالت وهى تغض البصر:

ـ بلغتنى رسالة من فوزى عن طريق صحفى صديق . .

خفق قلبى . إنه الصحفى الصديق . لا خير هناك على وجه اليقين . قالت:

ـ إنه يمنحنى الحرية للتصرف فى مستقبلى كما أشاء!

اشتد خفقان قلبى . وضح الأمر بحذافيره ولكنى صممت على تقطيره نقطة نقطة . والعجب أن الاضطراب شملنى لدرجة لم أنعم فيها بأى شعور مريح أو سعيد . بل خيل إلى أننى غير سعيد . وسألت بعناد:

ـ ماذا يعنى؟

ـ واضح أنه علم بأمرنا!

ـ ولكن كيف؟

ـ بأى طريق كان، ليس ذلك بالمهم!

تبادلنا نظرا حائرا. شعرت بأننى أكبل بالحديد. وقلت لنفسى كان يجب أن أحظى بقدر من السعادة أو الارتياح، فماذا جرى؟ وسألت:

- ترى هل غضب؟

فقالت بعصبية:

- لقد تصرف على أى حال كما توقعت أنت!

أحنيت رأسى فى تسليم ذاهل، فقالت:

- عليك الآن أن تمدنى برأيك؟!

أجل، لا يبقى إلا أن أعطيها إشارة البدء، أن تمضى الإجراءات فى سبيلها. أن أبنى عش الزوجية كما اقترحت وتمنيت. ها هو الحلم يستأذننى ليتسرب إلى عالم الحقيقة. ولكننى غير سعيد، يجب أن أكون صريحا مع نفسى، بل أبعد ما يكون عن السعادة!. إنى قلق وخائف. وليس ما بى شعور بالندم أو الخجل. إنه ملتصق بذاتى دون غيرى. ملكى الشخصى. وإذا لم أكن فى موقف دفاع عن سعادتى ففى أى موقف أكون؟

وقالت بنبرة لا تخلو من استياء:

- كلما فكرت وأمسكت عن الجواب. أشعرتنى بأننى منبوذة فى وحدة قاتلة!

ولكنى كنت فى حاجة إلى المزيد من التدبر. وكان الخوف والقلق قد بلغا بى مبلغا لم أعد أكترث فيه لعواطفها أو حتى مجاملتها. أفقت من سحرها كأن هراوة صكت رأسى. تحررت من سيطرتها. وارتفعت فى باطنى المضطرب القلق المذعور موجة سوداء من النفور والتمرد والقسوة. لم أجد لذلك تفسيرا إلا يكن الجنون نفسه.

وتساءلت هى بحدة:

ـ لم لا تتكلم؟
قلت بهدوء مخيف :
ـ درية . . لا تقبلي هبته الكريمة !
حملقت في وجهي . حملقت في وجهي ذابلة غير مصدقة تعيسة غاضبة، فقلت ممعنا في وحشيتي :
ـ افعلي ذلك بلا تردد !
ـ أنت تقول ذلك؟ !
ـ نعم . .
ـ إنه لمضحك، إنه لمبك ، إني لا أفهم شيئا . .
فقلت بيأس :
ـ فلنؤجل الفهم إلى حين . .
ـ لا يمكن أن تدعني بلا تفسير !
ـ لا أملك أي تفسير . .
انبثق شعاع غضب من أعماق عينيها الرماديتين وقالت :
ـ إنك تجعلني أشك في عقلك !
ـ أعتقد أنني أستحق ذلك !
فصاحت بحنق :
ـ أكنت تعبث بي طيلة الوقت؟
ـ درية !
ـ صارحني . . أكنت تكذب عليّ؟
ـ أبدا . .
ـ إذن هل مات حبك فجأة؟
ـ أبدا . . أبدا . .

ـ إنك تصر على العبث بى!

ـ ليس عندى ما أقوله، إنى أكره نفسى، هذا ما يجب أن أصارحك به، وعليك ألا تقتربى من رجل يكره نفسه . .

عكست عيناها المحملقتان هبوطا فى قواها الداخلية. ثم انتزعت بصرها من وجهى بازدراء وحنق. ولبثت فترة صامتة كأنما لا تدرى ماذا تصنع بنفسها. ثم تمتمت وكأنما تحادث نفسها:

ـ إنى حمقاء. وعلىّ أن أدفع ثمن حماقتى. لم تشعرنى بالثقة قط، ولا الأمان، كيف تجاهلت ذلك؟. لقد دستنى فى اندفاعك المجنون. أجل إنك مجنون . .

تخشعت كطفل مذنب مطيع. ولذت بالصمت كذريعة أخيرة لإنهاء الموقف المعذب. تجنبت النظر نحوها. تجاهلت وقع عينيها. صوت أصابعها فوق حافة المكتب. نفخها المضطرم، تحولت إلى جثة هامدة . .

وجاءنى صوتها متهافتا:

ـ أليس لديك ما تقول؟

فثابرت على الموت. قامت بشىء من العنف فقمت بدورى. غادرت المكان فتبعتها حتى بلغنا الطريق. وعبرناه معا. ثم أوسعت خطاها معلنة رفضها لمرافقتى فتوقفت. أتبعتها عينى كمن ينظر فى حلم. وتضخم الحلم وامتد رواقه. وتراجع الواقع حتى توارى وراء الأفق. رنوت إلى مشيتها المألوفة المحبوبة بغرابة، وبحزن، وحتى تلك اللحظة الجنونية لم يغب عنى أن ذاك الكائن المخلخل المقهور الذى يختفى رويدا فى تيار السابلة. لم يغب عنى إنه حبى الأول وربما الأخير فى هذه الدنيا. وباختفائها هويت إلى الحضيض. ورغم شقائى المؤكد فقد داخلنى ارتياح غامض غريب.

* * *

البحر يترامى تحت سطح أملس باسم الزرقة فأين العاصفة الهوجاء؟. والشمس تهوى إلى المغيب مرسلة شعاعا ماسيا يلتحم بأهداب سحائب رقيقة فأين جبال الغيوم؟. والهواء يلاعب سعف النخيل فى غابة السلسلة بمداعبات شفافة رقيقة فأين الرياح الهوج المزلزلة؟

ونظرت إلى وجه زهرة الشاحب، ودموعها الجافة على الوجنتين. ونظرتها الكسيرة الذابلة، فخيل إلى أننى أنظر فى مرآة، وأن الحياة تطالعنى بفطرتها الخشنة الفظة الرهيبة، بإمكانياتها المجردة، بصمودها الصلب المغطى بالأشواك، بآمالها الخبيثة فى قوقعة مسمومة الأطراف، بروحها الأبدية التى تجذب إليها المغامرين واليائسين فتقدم لكل غذاءه لقد سلبت الشرف وهجرت بلا كبرياء. أجل إنى أنظر فى مرآة.

رمقتنى بتحذير وقالت:

ـ لا لوم ولا عتاب من فضلك.

فقلت بحزن:

ـ سمعا وطاعة.

لم أكن أفقت بعد من تجربة درية المريرة، ولا وجدت الوقت الهادئ لتحليلها وفهمها. ولكنى كنت ممتلئا بها حتى الجنون. وكنت على يقين من أن العاصفة آتية لا ريب فيها. وأن ثمة ذروة للمأساة لم أبلغها بعد. وكان من المستحيل أن أبقى صامتا فقلت مواسيا:

ـ قد يكون الخير فيما حصل..

لم تنبس.. فسألتها:

ـ ماذا عن المستقبل؟

تمتمت بلا روح:

ـ إنى أحيا كما ترى..

ـ وأحلامك يا زهرة؟

ـ سأستمر . .

قالتها بعناد وإصرار ولكن أين الروح؟ . قلت :

ـ سيذهب الحزن كأن لم يكن ، وسوف تتزوجين وتنجبين أطفالا . .

قالت بمرارة :

ـ خير ما أفعل أن أتجنب جنس الرجال . .

ضحكت . أول ضحكة منذ دهر . إنها لا تدرى بالدوامة التى تعصف بى ، ولا بالجنون الذى يتربص بى .

وخطرت لى فكرة ، أخطرت فجأة وبلا مقدمات؟ . كلا لا شك أن لها جذورا مطمورة لم أفطن لها . إنها جنونية ولذلك فهى مغرية . فكرة غريبة باهرة وأصيلة . وغير بعيد أن تكون هى ما أبحث عنه . أن تكون البلسم لالتهاباتى المزمنة . نظرت إليها بحنان ، وقلت :

ـ زهرة ، لن تطيب لى الحياة وأنت حزينة . .

اغتصبت من شفتيها ابتسامة شكر فقلت وموجة الحماس ترتفع بى درجة جديدة :

ـ زهرة . . اطردى الأحزان . . كونى كما كنت دائما . خبرينى متى أرى ابتسامة السعادة على شفتيك!

ابتسمت برأس حان . ارتفعت موجة الحماس درجة جديدة . ها هى الفتاة المنفية الوحيدة المهجورة المسلوبة الشرف . وقلت بانفعال غريب :

ـ زهرة . . لعلك تجهلين كم أنك عزيزة عندى . . زهرة . . اقبلينى زوجا لك!

التفتت نحوى بحركة سريعة . ذاهلة وغير مصدقة . انفرجت شفتاها لتتكلم ولكنها لم تنبس بحرف .

قلت وأنا واقع تحت سيطرة انفعالى الغريب :

ـ اقبلينى يا زهرة . . إنى أعنى ما أقول!

قالت ولما تفق من دهشتها :

ـ لا . .

ـ فلنتزوج فى أقرب فرصة . .

تحركت أصابعها القوية بعصبية وهى تقول :

ـ إنك تحب واحدة أخرى!

ـ لم يكن هناك حب ، إنها حكاية اختلقها خيالك ، فأسمعينى جوابك يا زهرة!

تنهدت . . تنهدت وهى ترمقنى فى ارتياب وقالت :

ـ أنت كريم نبيل ، وعطفك يدفعك فى طريقه بلا تفكير ، كلا ، لن أقبل ذلك ، وأنت لا تعنيه ، كلا ، لا تعد إلى ذلك . .

ـ إذن ترفضيننى يا زهرة؟

ـ إنى أشكرك ، ولكن ليس هناك طلب حتى أرفضه أو أقبله . .

ـ صدقينى ، أقسم لك ، امنحينى وعدا . . أملا . . وسأنتظر!

قالت بإصرار ودون أن تأخذ كلامى مأخذ التصديق الحقيقى :

ـ كلا ، إنى أشكر عطفك وأقدره ، ولكننى لا أستطيع أن أقبله . عد إلى فتاتك ، إن كان هناك خطأ فلا شك أنها هى المخطئة ولكنك ستسامحها . .

ـ زهرة . . صدقينى . .

ـ كلا . . لا تعد إلى ذلك من فضلك .

قالتها بإصرار رهيب ، ثم تبدى الإعياء فى أعماق عينيها ، وكأنما ضاقت بالموقف كله فشكرتنى بإيماءة وهى تمضى خارجا بتصميم قاطع .

ارتددت إلى الفراغ. نظرت فيما حولى كأنما أبحث عن غوث. متى يقع الزلزال؟ متى تهب العاصفة؟. وماذا قلت؟. كيف قلته؟. ولم؟. أيوجد شخص آخر يتخذ منى وسيطا له كلما شاء هواه؟. وكيف يمكن أن أضع حدا لذلك كله؟

* * *

كيف يمكن أن أضع حدا لذلك كله ؟

كررت السؤال وأنا أغادر الحجرة بجنونى. رأيت فى الصالة سرحان البحيرى وهو يتكلم فى التليفون، ولمحت حقيبته وراء الباب مؤذنة برحيله الأبدى. نظرت إلى مؤخر رأسه المائل إلى سماعة التليفون بمقت. كأنما أنظر إلى عدو لدود ورائى. إنه يملأ حياتى أكثر مما تصورت. وإذا اختفى حقا إلى الأبد فماذا أصنع بحياتى؟. وكيف أعثر عليه مرة أخرى؟. إنه يشدنى إليه شدا. كالنور والفراشة. إنه الجرعة السامة التى قد أتداوى بها.

وارتفع صوته الرنان وهو يقول للتليفون.

ـ طيب.. الساعة الثامنة مساء.. سأنتظرك في كازينو البجعة!

إنه يضرب لى موعدا.. وربما يحدد لى هدفا. إنه يدعو جنونى إلى الرقص. صوته الرنان يغرينى بالانتحار. إنه يأمرنى بأن أتبعه وسيمن على بانتشالى من الفراغ.

تراجعت إلى حجرتى خشية أن أندفع مع عواطفى الجامحة. ولما غادرت البنسيون لم يكن به أثر لسرحان.

ذهبت إلى أثنيوس. فكرت أن أكتب رسالة إلى درية ولكن الجنون عصف برغبتى كما عصف بعقلى.

واتخذت مجلسا فى ركن البهو الداخلى بكازينو البجعة. كمن قرر الهجرة فودع المدينة وهمومها جميعا. وجدت شيئا من الراحة وشيئا من

صفاء الذهن. توارى الركن وراء موائد مشغولة برجال ونساء. وطلبت كأسا من الكونياك ثم أتبعتها بأخرى وعيناى مصوبتان نحو المدخل. وقبيل الثامنة بربع ساعة جاء البطل المنشود. جاء يتقدمه طلبة مرزوق!. أكان هو الشخص الذى كلمه فى التليفون؟. ومتى جمعت بينهما هذه الصداقة الطارئة؟. جلسنا على مبعدة عشر موائد من مجلسى، وجاءهما الجرسون بكونياك كذلك. وتذكرت أننى وافقت صباحا ـ على مائدة الإفطار ـ على اقتراح لطلبة مرزوق بأن نمضى سهرة رأس السنة فى المونسنيير!. أجل وعدت بالاحتفال بليلة رأس السنة الجديدة. ومضيت أنظر إليهما من وراء وهما يشربان ويتبادلان الحديث والضحك.

* * *

حرصت على ألا يرانى ولكنه لمحنى فى المرآة. تجاهلته ومضيت وأنا ألعن سوء الحظ. كانت الطريق خالية تماما وكنت أسمع أطيط حذائه ورائى. وأبطأت فى السير حتى أوشك أن يدركنى وكنا أوغلنا فى الطريق الخالية، وحاذانى وهو يرمقنى بارتياب، وتباطأ فى السير حتى لا يعرض لى ظهره بلا دفاع، وقال:

ـ إنك تتبعنى.. لقد رأيتك من البداية!

فقلت ببرود:

ـ نعم..

ازداد حذرا وهو يتساءل:

ـ لماذا؟

نزعت المقص من معطفى وأنا أقول:

ـ لأقتلك..

تحجرت عيناه على المقص وهو يقول:

ـ أنت مجنون بلا شك..

وتوثب كلانا سواء للهجوم أو للدفاع، ومضى يقول:

ـ لست بولى أمرها!

ـ ليس من أجل زهرة.. ليس من أجل زهرة فقط..

ـ إذن لماذا؟

ـ لا حياة لى إلا بقتلك!

ـ ولكنك ستقتل أيضا، أنسيت!

فاجتاحنى شعور المهاجر الذى ودع المدينة بكافة همومها، وثملت به. وإذا به يسألنى:

ـ كيف عرفت مكانى؟

ـ سمعتك فى البنسيون وأنت تتكلم فى التليفون.

ـ وعزمت عند ذاك على قتلى؟

ـ أجل.

ـ ألم تعزم على ذلك من قبل؟

ذهلت، لم أجب، ولكننى لم أتراجع.

ـ إنك فى الواقع لا تريد قتلى!

ـ بل أريده وسأقتلك..

ـ هبك لم ترنى ولم تسمعنى فى تلك اللحظة؟

ـ ولكنى رأيتك وسمعتك.. وسأقتلك.

ـ ولكن لماذا؟

ذهلت مرة أخرى ولكن تأكدت نيتى على القتل ورسخت إلى الأبد. وصحت به:

ـ لذلك أقتلك، خذ.. خذ..

* * *

ترامت إلىّ ضحكة سرحان وهو يحادث طلبة مرزوق. وأكثر من مرة غادر مكانه ثم رجع إليه.

لعنت طلبة مرزوق وقلت إن مجيئه قد أفسد كل شيء. غير أنه قام بعد مضى ساعة أو نحوها فصافح سرحان مودعا وذهب. بقى سرحان وحده فتلهفت على اللحظة التى يمحى فيها العذاب. وواصل الشراب ولكنه كان يتلفت كثيرا نحو مدخل المكان. ووضح فى لفتاته التوتر والقلق. أينتظر شخصا آخر؟. هل يجيء الآخر فيضيع الفرصة إلى الأبد؟

ودعاه الجرسون إلى التليفون فمضى مسرعا ملهوفا. غاب بعض الوقت ثم رجع إلى مجلسه واجما متجهما. رجع فى الحقيقة متهدما. ماذا حدث؟. لم يجلس، دفع حسابه ثم غادر المكان. راقبته من الزجاج الفاصل بين البهو والداخل فرأيته متجها نحو البار، ربما لمزيد من الشراب. تربصت به حتى فارق مكانه ماضيا نحو الباب الخارجى فغادرت مجلسى فى هدوء وتمهل. ولدى خروجى كان قد عبر الطريق. أحكمت المعطف حولى اتقاء لهواء خفيف ولكن لاسع كالسياط. الطريق خال تماما، وأضواء المصابيح متلفعة بهالات من الضباب، وهسيس النبات على الجانبين يخرق الصمت الشامل. سرت حذرا، أكاد ألاصق الجدران، ولكنه بدا غائبا فى أفكاره ذاهلا عما حوله منهمكا بكليته فى عالم وحده، حتى إنه نسى المعطف مطروحا على ذراعه. ماذا حصل؟. لقد ظل طيلة الوقت يتحدث ويضحك فماذا قلبه؟. أما أنا فقد تركزت فى فكرة واحدة كأنما هى وجه الخلاص الوحيد لى. وإذا به يميل إلى الطريق الزراعى الموصل للبالما. طريق خال ومظلم، مهجور تماما فى تلك الساعة، ماذا يروم منه؟ وأى قضاء يتصرف كأنما ليسلم عنقه بين يدى؟!. أسرعت قليلا حتى لا أضله وأنا ألامس سياج الحدائق، وقد غرقنا معا فى الظلام. وجعلت أتوثب وأنا أتابع شبحه، ولكنه توقف فجأة فوقفت عن التقدم وأنا أرتعد. سيقع شيء ما. ربما جاء شخص غريب، علىّ أن أنتظر. وإذا بصوت يند عنه كلمة.. إشارة صوتية. قيء!. وتحرك ببطء مسافة قصيرة ثم سقط على

الأرض. سكران مخمور. لقد شرب فوق طاقته وها هو يفقد الوعى. وانتظرت وأنا أرهف السمع ولكن لم يقع شىء. اقتربت منه حتى كدت أعثر به. انحنيت فوقه، أردت أن أناديه ولكن صوتى انحبس. لمست جسمه ووجهه فلم يستجب غرق تماما فى غيبوبة الخمر، وسوف يفارق العالم بلا ألم أو خوف. كما يتمنى عامر وجدى العجوز. هززته برفق فلم ينتبه، هززته بشىء من الشدة فلم ينتبه أيضا، حركته بعنف فلم تبدر منه بادرة أمل فى إفاقة. انتصبت قامتى فى حنق. دسست يدى لأستخرج المقص ولكنى لم أجد له أثرا. فتشت عنه فى جميع مظانه عبثا. أسهى على أن آخذه!. كنت مضطربا، متأزما، يائسا، ثم جاءت المدام لتستطلع رأيى فى سهرة رأس السنة. أجل، لقد غادرت الحجرة دون أن أحقق الغرض الوحيد من رجوعى إليها. تضاعف غضبى على نفسى، تضاعف غضبى على السكران المنعم بغيبوبة لا يستحقها. ركلته فى جنبه. ركلته مرة أخرى بقوة أشد. ركلته الثالثة بعنف. وجن جنونى فانهلت عليه بطرف الحذاء فى شتى أطرافه حتى أفرغت غضبى وهياجى. تراجعت إلى السياج وأنا أترنح من الإعياء مرددا: « لقد قضيت عليه». كنت أتنفس بصعوبة وأشعر بتقزز، وسيطر على إحساس مضن بأننى مجنون يمارس حركات جنونية عنيفة فى الظلام. وتذكرت درية. تذكرتها وهى تنظر فى أعماق عينى، وهى تضيع فى زحمة الطريق..

ورجعت إلى البنسيون مشيا على الأقدام. تخيلت زهرة وهى تغط فى نوم مرهق ثقيل خانق.

وتناولت حبة منومة ثم استلقيت على الفراش.

* * *

دفعنى بإصرار وهو يقبض على منكبى فصرخت غاضبا:

ـ إنك تقضى علىّ إلى الأبد.

٤

سرحـان البحـيـرى

هاى لايف.

معرض أشكال وألوان مثير للشغب، شغب البطون والقلوب. موجة هائلة من الأنوار الباهرة تسبح فيها قدور فواتح الشهية، العلب الحريفة والمسكرة، اللحوم المقددة والمدخنة والطازجة، الألبان ومستخرجاتها، القوارير المضلعة والمنبسطة والمبططة والمربعة والمنبعجة المترعة بشتى الخمور من مختلف الجنسيات.

لذلك تتوقف قدماى بطريقة أتوماتيكية أمام كل بقالة يونانية.

ـ وهواء الخريف يلفحنى بدسامته الجنسية. وعيناى ترنوان إلى الفلاحة بين الزبائن أمام الطاولة. طوبى للأرض التى غذت وجنتيك ونهديك. وأنا أراجع أسعار القوارير لمحتها. امتد إليها بصرى من موقفى فوق الطوار، مارا فوق برميل الزيتون، نافذا من فرجة بين الهيج والديوارس، مائلا عن قطاعة البسطرمة، حتى استقر على عارض وجهها الأسمر المرفوع إلى البقال ذى الشارب البلقانى. وقد تأبطت حقيبة من القش المجدول ملئت بالمشتريات، وقد برزت من جانب غطائها رأس زجاجة الجونى ووكر.

تصديت لها وهى تغادر المحل فتلاقت عينانا، ارتطمت نظرتها المستطلعة الصلبة بنظرتى الضاحكة المعجبة. سارت فى طريقها فسرت وراءها ولا غاية لى إلا تحية الجمال ذى العبير الريفى الذى أحبه.

تعرضنا فى طريق الكورنيش لدفقات هواء الخريف المشعشع بالشعاع الوانى الغارب، وهى تتقدمنى فى مشية عسكرية سريعة حتى انعطفت فيما وراء عمارة الميرامار. التفتت ناحيتى وهى تمرق إلى مدخل العمارة فتلقيت نظرة عسلية محايدة!

وتذكرت موسم جنى القطن فى قريتنا..

* * *

كان عبيرها قد تبخر من نفسى أو كاد عندما رأيتها للمرة الثانية فى نهاية الأسبوع. لمحتها أمام معرض محمود أبو العباس وهى تبتاع الجرائد. أدركتها قبل أن تذهب وأنا أقول:

ـ صباح الفل..

رد محمود أبو العباس التحية دونها ولكنها نظرت نحوى فتلقيت نظرتها بعين صقر تود أن تشدها إليها إلى الأبد. سرعان ماذهبت وقد هيجت عبيرها من جديد فملأ حواسى جميعا، وقلت لمحمود:

ـ هنيئا لك!

فضحك فى براءة فسألته:

ـ من أين؟

فأجاب دون مبالاة:

ـ تعمل فى بنسيون ميرامار!

رددت إليه مبلغا كنت اقترضته فى زنقة من مطالب الأسرة ثم مضيت أتمشى حول الفسقية فى انتظار المهندس على بكير. فلاحة حلوة، حلوة بكل معنى الكلمة، وها هى تسلب لبى. انتشيت بالانفعال وشعاع الشمس وبالوجوه الكثيرة الواقعة فى حبائل الانتظار حولى.

وتذكرت موسم جنى القطن فى قريتنا.

* * *

جاء على بكير حوالى العاشرة صباحا فذهبنا إلى مسكنى بشارع الليدو بالأزاريطة. كانت صفية قد ارتدت ملابسها فذهبنا إلى سينما مترو. غادرنا السينما فى الواحدة بعد الظهر فسبقانى إلى الشقة وذهبت إلى هاى لايف لابتياع زجاجة نبيذ قبرصى.

رأيت الفلاحة واقفة تستبضع. كملاطفة الأحلام وابتسام الحظ. شىء نبهها إلى وقفتى فيما وراءها فالتفتت مستطلعة فرأت وجهى المبتهج. أرجعت رأسها ولكننى لمحت فى مرآة تتوسط أسرابا من قوارير الخمر ابتسامة انفرجت عنها شفتاها الورديتان. رأيت ـ فيما يرى الحالم اليقظان ـ نفسى مقيما فى البنسيون، أستمتع فيه بالدفء والحب. لقد تسللت إلى نفسى أنعشت قلبى كما حدث له مرة فى كلية التجارة. وهذه الابتسامة صريحة كشمس النهار المشرق. فلاحة.. بعيدة عن منبتها.. غريبة فى بنسيون.. غريبة كالكلب الضال الأمين فى سعيه وراء صاحب.

وقلت لها ونحن نغادر المحل:

ـ لولا ضوء النهار لأوصلتك..

فقطبت ساخرة وهى تقول دون غضب حقيقى:

ـ دمك خفيف!

فحلمت أحلاما سعيدة بعبير الريف والحب البكر..

* * *

وجدت على بكير متربعا فوق شلتة بحجرة الشلت، وصفية تعد الطعام فى المطبخ. ارتميت إلى جانبه ثم وضعت الزجاجة أمامى وأنا أقول:

ـ نار.. هذا هو آخر تعريف علمى للأسعار..

شد على ذراعى ثم سألنى:

ـ مرت أزمة العام الدراسى الجديد؟

ـ مرت ولكن بغير سلام . .

أخبرته ذات يوم بتنازلى لأمى وإخوتى عن إيراد ميراثى من الأرض البالغ أربعة أفدنة ولكن ما الفائدة؟!

وقال مشجعا:

ـ مازلت فى مقتبل العمر والحياة، وأمامك مستقبل باهر . .

فقلت فى ضجر:

ـ حدثنى عن الحاضر من فضلك، وخبرنى بالله عن معنى الحياة بلا فيللا وسيارة وامرأة؟

ضحك على بكير موافقا، وسمعت صفية حديثى وهى قادمة بالصينية فرمتنى بنظرة ضارية وخاطبت المهندس قائلة:

ـ لا ينقصه شىء ولكنه جاحد ابن جاحدة!

فتراجعت قائلا:

ـ لا أملك فى الواقع إلا المرأة!

قالت صفية متشكية:

ـ نحن نعيش عيشة مشتركة منذ أكثر من عام، عزمت على تعليمه الاقتصاد فجرفنى معه إلى التبذير!

شربنا وأكلنا ونمنا.

وغادر ثلاثتنا المسكن قبيل الغروب فذهبت صفية إلى الجنفواز، وذهبت وعلى بكير إلى الكافيه دى لابيه. سألنى ونحن نحتسى القهوة:

ـ أما زالت تطمح إلى الزواج منك؟

ـ مجنونة . . ماذا تتوقع من مجنونة؟

ـ أخاف أن . .

ـ نجوم السما أقرب إليها منى، ثم إننى مللتها جدا . .

نظرنا من الزجاج إلى جو رائق . شعرت بعينى على بكير وهما تتحولان إلىّ فتجاهلتهما وأنا أستشعر نذير الخطر . ومالبث أن قال :

ـ لندخل فى الجد . .

حولت نظرى إليه . صرنا وجها لوجه . لا مفر الآن ولا مهرب . قلت :

ـ لندخل فى الجد . .

فقال فى هدوء غريب :

ـ حسن ، تمت دراسة الموضوع بدقائقه !

انقبض قلبى .

انقبض قلبى . نظرت إليه بتسليم واهتمام وقلق . قال :

ـ أنا المهندس المختص وأنت المشرف على حسابات القسم، سواق اللورى مضمون، وكذلك الخفير، لم يبق إلا أن نجتمع للقسم على القرآن . .

ضحكت رغما عنى . نظر إلىّ متسائلا ، ثم أدركت النكتة التى أفلتت منه بلا قصد . ضحك أيضا، ثم قطب قائلا :

ـ ليكن، إنه مال بلا صاحب، تصور ما يعنيه لورى من الغزل فى السوق السوداء، عملية مأمونة ويمكن أن تتكرر أربع مرات فى الشهر . .

رحت أفكر وأحلم . وواصل على حديثه قائلا :

ـ الخطوات المشروعة سراب، صدقنى . ترقيات وعلاوات ثم ماذا؟ بكم البيضة؟ . . بكم البدلة؟ وها أنت تتحدث عن فيللا وسيارة وامرأة، حسن، أفتنى إذن؟ وقد انتخبت عضوا فى الوحدة فماذا أفدت؟ وانتخبت عضوا فى مجلس الإدارة فماذا جد؟ وتطوعت

لحل مشكلات العمال فهل فتحوا لك أبواب السماء؟ والأسعار ترتفع والمرتبات تنخفض والعمر يجرى، حسن، ما الخطأ؟ كيف وقع؟ أنحن أرانب معمل؟! عزيزى . . اعدلنى على القبلة . .

سألته وصوتى يقع من سمعى موقع الصوت الغريب:

ـ متى نشرع فى العمل؟

ـ لن نبدأ قبل شهرين وربما ثلاثة، يجب أن يكون التخطيط أساس عملنا، وبعدها حياة خالد الذكر هارون الرشيد!

رغم أن مقاومتى الحقيقية كانت قد انهارت من زمن بعيد إلا أن قلبى ناء بهم ثقيل. وجعل ينظر فى عينى ببصر حاد. ثم سألنى:

ـ هه؟

فانفجرت ضاحكا. ضحكت حتى دمعت عيناى، وطالعنى وجهه طيلة الوقت صلبا باردا متسائلا. ملت نحوه فوق المائدة ثم همست:

ـ أوكى أيها الزميل العزيز . .

شد على يدى ثم ذهب. لبثت وحدى موزعا بين أفكارى.

ـ أستاذ . . سأحتاج قريبا إلى خبرتك . .

سألته عما يريد فقال:

ـ سأشترى ـ إن شاء الكريم ـ مطعم بنيوتى عندما يقرر السفر إلى الخارج . .

ذهلت حقا. نظرت إلى معرضه المكتظ بالكتب والجرائد والمجلات، هل مكنه حقا من ادخار ما يبتاع به مطعم بنيوتى؟. وسألته:

ـ ماذا تريد منى وأنا لا أعرف عن الطعام إلا أنه يؤكل؟

ـ أن تساعدنى فى الحسابات . .

وعدته خيرا، ثم خطر لى أن أبيع الأفدنة وأشاركه، فسألته:

ـ لعلك تحتاج إلى شريك؟

فأجاب بنفور واضح:

ـ كلا، لا أحب الشركة، ولا أريد للمطعم أن يكبر فيلفت نظر الحكومة!

* * *

ذهبت إلى المقر العام للاتحاد الاشتراكى فاستمعت إلى محاضرة عن السوق السوداء، أعقبتها مناقشة عامة. ولما انفض الاجتماع سمعت صوتا ينادينى وأنا ماض نحو الباب الخارجى. توقفت فى تيار الزحام وأنا أتلفت فرأيت رأفت أمين مقبلا نحوى. لم أكن رأيته منذ عهد الدراسة بالجامعة فتصافحنا بحرارة، وسرنا فى الزحام حتى خرجنا إلى الطريق. أخبرنى بأنه حضر الاجتماع باعتباره ـ مثلى ـ عضوا فى الوحدة الأساسية لشركة المعادن المتحدة. واتجهنا نحو الكورنيش بإغراء من لطافة الجو، ولما خلونا إلى أنفسنا أو كدنا أغرقنا فى الضحك معا. ضحكنا بلا مناسبة ظاهرة ولكن بدافع من ذكريات مشتركة لم يكن فى الإمكان نسيانها أو تجاهلها. ذكريات اجتماعية مماثلة، شهدناها جنبا لجنب، فصفقنا معا وهتفنا معا. حدث ذلك عندما كنا عضوين فى لجنة الطلبة الوفديين بالكلية. أتذكر؟. طبعا منذا ينسى؟ كنا وقتذاك أعداء الدولة. أجل.. أما اليوم فنحن الدولة. وجرى الحديث هكذا بين الماضى والحاضر حتى قلت له:

ـ لا أصدق أنك ـ أنت بالذات ـ تبرأت من وفديتك؟

فعاوده الضحك وهو يقول:

ـ وأنت لم تكن وفديا مخلصا، واحدة بواحدة والبادى أظلم..

ثم لكزنى بكوعه متسائلا:

ـ ولكن أأنت اشتراكى مخلص؟

- طبعا . .

- لم من فضلك؟

- للثورة أعمال لا يسع الأعمى إلا الإقرار بها .

- والبصير؟

فقلت بجدية :

- إنى أعنى ما أقول .

- إذن فأنت ثورى اشتراكى؟

- بلا أدنى شك .

- مبارك ، خبرنى الآن أين نقضى ليلتنا؟

فدعوته إلى الجنفواز . سهرنا حتى منتصف الليل . أردت أن انتظر صفية ولكنها أخبرتنى بأنها مدعوة للذهاب مع زبون ليبى .

* * *

كنت خارجا من سينما ستراند عندما رأيت الفلاحة الحلوة . كانت قادمة من شارع صفية زغلول بصحبة عجوز يونانية . رائقة السمرة ساحرة النظرة ريانة الشباب . كان الطوار مكتظا بالخلق ، والهواء يهب منعشا حاملا رائحة البحر ، وهالة ضخمة من القطن المندوف تغشى القبة فتضفى على الجو لونا أبيض ناعسا ناعما كبهجة الرضى . مضتا تشقان طريقهما وسط الزحام فتراجعت خطوة موسعا وأنا أحيى بإغماضة من عينى . ابتسمت بحذر ، أجل . . استجابت باسمة فى حذر . وقلت لنفسى إن الصنارة قد نشبت . وشاع فى نفسى سرور كالسائل العذب الذى يخالط الريق بعد مضغ الفول الأخضر البكر الطازج المقطوف لتوه من الأرض الخضراء .

* * *

اختلست من وجهها نظرة وأنا أحتسى قهوة الأصيل . كانت عيناها

منتفختين محمرتين من أثر النوم العميق، وشفتاها الغليظتان منفرجتين، فى أقبح أحوالها كالعادة، وغافلة تماما عما دبرت لها.

فقلت بلهجة أسيفة مصطنعة:

- صفية..

رمقتنى مستطلعة فقلت:

- جدت ظروف سخيفة ولكن علينا أن نتوافق معها؟

فاستقرت فى عينيها نظرة حذرة، وهزت رأسها داعية إياى إلى الإفصاح فقلت:

- سنضطر إلى تغيير نظام حياتنا، أعنى الإقامة فى شقة واحدة!

قطبت فتجمع الغضب بين حاجبيها كما يتجمع ماء المطر فى نقرة مطينة وتحفزت للنضال، فقلت:

- إنها كارثة، كارثة تماما بالنظر إلى أزمة المساكن، ولكن زميلا فى الشركة لمح لى، أجل، حدثتك مرة عن الرقابة الإدارية، ولا شك أن مستقبلك يهمك كما يهمنى.

قالت بضيق محتجة:

- ولكن مضى على حياتنا المشتركة حوالى عام ونصف.

- كانت أهنأ أيام حياتى، وكان يمكن أن تمتد إلى الأبد دون أن يدرى بها أحد..

ونظرت فى قعر الفنجال كأنما أقرأ البخت ثم واصلت قائلا:

- ولكن سوء الحظ أدركنى، سأرجع إلى شقة العازب المبعثرة، وربما اضطررت إلى الإقامة فى فندق حقير أو بنسيون مزعج..

نفخت بوحشية وقالت:

- يوجد حل، يوجد حل، ولكنك خسيس ابن حرام!

ـ أنا رجل صريح، أحبك حقا، وسأحبك حتى آخر يوم فى حياتى، ولكنى قلت لك من أول يوم إن الله لم يخلقنى للزواج . .

ـ لأنه خلقك ناقص المروءة . .

ـ وإذن فلا داعى للرجوع إلى مناقشات لا خير فيها . .

تفرست فى عينى كأنما لتنفذ إلى أغوارهما، ثم قالت :

ـ تريد أن تهجرنى . .

فبادرتها :

ـ صفية ، أنا رجل صريح، لو فى نيتى أن أهجرك لقلتها بصريح العبارة وذهبت . .

ران الكدر على روحها ووجهها، وضاعف العبوس من دمامتها العابرة، فتمنيت أن تعافنى وتكرهنى ليذهب كل منا إلى حال سبيله .

وقلت لنفسى إنه عند الحساب ستتعادل كفتانا . كانت حياتنا مشتركة بكل معنى الكلمة عدا المجاملات التى كانت تنفحنى بها فى المناسبات والتى عجزت ـ لظروفى الخاصة ـ عن ردها . غيرى آخرون يستغلون عشيقاتهم استغلالا فاحشا . الحق أنى لم أعتد بذل النقود للنساء . وعلى أى حال فإنى أتوقع معركة ختامية، وقد جربت ذلك أكثر من مرة . وقد عرفت الحب فى الكلية ولكنى جئت متأخرا فضاعت الفرصة . فرصة سعيدة كانت . جميلة وذات مستقبل وكريمة لطبيب تتدفق عليه أموال المرضى، ولكن ما فائدة «لو»؟

ها هو قلبى يخفق مرة أخرى . أجل . . إنى أحب الفلاحة . مجرد شهوة كالتى ساقتنى إلى صفية فى الجنفواز .

* * *

ـ أريد حجرة لإقامة طويلة .

تجلت نظرة ارتياح فى العينين الزرقاوين المستطلعتين، ثم تراخت

مستندة إلى ظهر الكنبة تحت تمثال العذراء. فى لفتاتها رشاقة متخلفة عن ماض سعيد، وشعرها الذهبى المصبوغ يشى برغبة مزمنة فى التشبث بذلك الماضى. ساومتنى بصراحة تجارية مؤكدة الأسعار الخاصة بالصيف.

ـ ولكن أأنت قادم جديد إلى الإسكندرية؟

لم يكن سؤالا عارضا ولكنه حلقة من سلسلة استجواب طويل مفهوم. جاريتها لأوثق علاقتى بها فقدمت لها اعترافا بعملى وسنى وبلدتى وحالتى الاجتماعية. فى أثناء ذلك رجعت الفلاحة من مشوار خارجى، رأتنى فخفضت عينيها، أدركت حقيقة الموقف بنظرة واحدة، ومضت متعثرة فى ارتباكها، ولكن المدام لم تفطن بطبيعة الحال إلى ارتباكها، ولا رأت تورد خديها. وعندما تقدمتنى إلى الحجرة الخالية ـ آخر حجرة خالية مطلة على الشارع ـ كنا بمثابة صديقين ترجع صداقتهما إلى عهد غابر فى الزمان.

* * *

تفقدت الحجرة بارتياح ثم جلست على المقعد الكبير مستبشرا. عرفت من مجلسى ـ ودون سؤال ـ اسم الفلاحة وهى تنادى. وما لبثت أن دخلت حجرتى حاملة الملاءات والأغطية لتعد السرير. مضيت أراقبها بسعادة متفحصا أجزاءها بعناية وشغف، الشعر والقسمات والقامة. يا سيدى أبو العباس البنت جميلة، جميلة لدرجة السحر، وتملك شخصية أيضا. أرادت أن تختلس منى نظرة ولكن عينى كانتا لها بالمرصاد. وابتسمت قائلا:

ـ أنا سعيد يازهرة..

استمرت فى عملها كأنها لم تسمعنى فقلت:

ـ ربنا يطول عمرك فقد أرجعت إلى الريف الذى جئت منه..

ابتسمت فقلت :

ـ محسوبك سرحان البحيرى يا زهرة . .

فلم تملك أن سألت :

ـ بحيرى؟

ـ من فرقاصة بالبحيرة . .

كتمت ضحكتها وهى تقول :

ـ أنا من الزيادية . .

فهتفت بنشوة كأنما وحدة المحافظة معجزة قد وجدت لضمان سعادتى وحبى :

ـ يا ربنا . .

وكانت انتهت من عملها فهمت بمغادرة الحجرة فرجوتها قائلا :

ـ ابقى قليلا فلدى الكثير مما أود قوله .

ولكنها حركت رأسها بدلال برىء ثم ذهبت . سعدت بتنكرها لرجائى واعتدته معاملة «خاصة» لا يمكن أن تعامل بها «زبونا» مجردا . نعم إنها ثمرة ناضجة وما على إلا أن أقطفها ولكن جسمها برىء فيما يبدو ولا علم لى باستعداداتها . إنى أحبها ، ولا غنى لى عنها . وددت أن يضمنا مسكن واحد بعيدا عن هذا البنسيون الذى لا يخلو عادة من متطفلين ثقلاء .

* * *

على مائدة الإفطار تعرفت بعجوزين غريبين . أكبرهما حى ميت ، مومياء ، ولكنه لا يخلو من مرح ، وهو ـ كما قيل ـ صحفى قديم . والآخر طلبة مرزوق ، ليس اسمه بالغريب على أذنى وإن كاد يمحى ، وهو ممن وضعوا تحت الحراسة ، ولا علم لى بما جاء به إلى هذا البنسيون . وقد أثار تطلعى من أول الأمر ، فكل شاذ مثير سواء كان

مجرما أو مجنونا أو محكوما عليه أو موضوعا تحت الحراسة، إلى ذلك كله فقد كان من الطبقة التى علينا أن نرثها بطريقة ما. ها هو يخفى عينيه فى قدح الشاى، متجنبا النظر نحوى، عن حذر أو كبرياء. وتلاطمت فى نفسى - حياله - أحاسيس متباينة تتراوح ما بين الشماتة من ناحية والرثاء من ناحية أخرى، غير أن إحساسا منها استقر فى وضوح وهو ذعرى الغريب من فكرة مصادرة الثروات، كأنما أومن بأن من يقتل مرة قد يعتاد القتل!.

وأراد عامر وجدى أن يجاملنى فقال:

- يسرنى أنك من رجال الاقتصاد، إن الدولة اليوم تعتمد أول ما تعتمد على الاقتصاديين والمهندسين..

تذكرت على بكير فلم أهنأ بالثناء. وعاد العجوز يقول:

- على أيامنا كان جل اعتمادها على بلاغة البلغاء!

ضحكت هازئا متوهما أنى بذلك أجارى رأيه غير أنه استاء فيما بدا فأدركت أنه لم يكن ينتقد، ولكنه كان يؤرخ. وراح يقول مدافعا عن جيله:

- يا بنى. كان هدفنا إيقاظ الشعب، والشعوب تستيقظ بالكلمات، لا بالمهندسين ولا بالاقتصاديين!

وسرعان ما تراجعت قائلا فى اعتذار:

- لو لم يقم جيلكم بواجبه لما تحقق لجيلنا وجود!

وظل طلبة مرزوق ملازما الصمت.

* * *

قلبى يستعيد براءته وفتوته. مثل هذا الصباح المشرق. مثل زرقة البحر صافية. مثل هذا الدفء المبارك. وحب الحياة يتردد مع أنفاسى، يجرى مع ريقى، ينعش روحى بفرح ونهم. عملت نهارا طيبا بالشركة

ثم تناولت الغداء مع صفية فى مسكنى القديم. نظرت إلىّ ببصر فأسدلت على وجهى قناع الكآبة. شكوت إليها وحشة البنسيون وبرودته. حياة لا تحتمل يا عزيزتى ولذلك وصيت سمسارا بالبحث لى عن شقة.

وترددت ألفاظ مألوفة مثل خسيس وابن حرام، ولما آن لنا أن نستريح بعد الغداء ساءلت نفسى متى أتحرر من السخرة؟.

ولمحت زهرة وهى تحمل القهوة إلى حجرة عامر وجدى. دقت الساعة الكبيرة الخامسة مساء فطلبت قدحا من الشاى. جاءتنى منورة كالنرجسة. أو أغنية تتغنى بسواد الشعر وصفاء السمرة وشهد العين. لمست يدها وأنا أتناول القدح وهمست:

ـ من أجلك سجنت نفسى فى هذه الحجرة..

قطبت لتدارى عواطفها ثم استدارت لتذهب فقلت لها قبل أن تختفى عن ناظرى:

ـ أحبك.. لا تنسى ذلك أبدا..

ولكنها استجابت لمحادثتى عصر اليوم التالى. رغبت أن أعرف عنها أقصى ما يسعنى معرفته فسألتها:

ـ ماذا جاء بك من الزيادية إلى هنا؟

أجابت باللهجة الريفية الأليفة.

ـ الرزق..

وحدثتنى عن أهلها، وظروف هربها، والتجائها أخيرا إلى المدام بوصفها عميلة أبيها. قلت بإشفاق:

ـ ولكنها خواجاية.. والبنسيون كما تعلمين سوق!

قالت بثقة واعتزاز:

ـ عرفت الحقل والسوق!

ليست بالغرة ولا بالهشة. ولكن هل آخذ القصة بحرفيتها. إن اللاتى يهربن من القرية إنما يهربن. . هه؟! وقلت وأنا أرامقها مفتونا بها:

ـ حدث ذلك كله لكى نلتقى هنا!

رمتنى بنظرة مستطلعة لا تخلو من ارتياب ولكنها ندية بالميل، فقلت:

ـ أحبك. هذا ما أود قوله ولا أمله يازهرة. .

تمتمت:

ـ كفاية!

لن أكف حتى أسمع مثلها من شفتيك، حتى تطمئن إلى حضنى. .

ـ أهذا ما تفكر فيه؟

ـ لن يكون لشىء طعم حتى أناله. .

ذهبت بوجه صاف لا أثر فيه للكدر أو الغضب. هنأت نفسى على بلوغ المراد. . ووجدتنى أجتر حنينى القديم إلى الزواج، إنه لحنين قديم، وقد فاض من جديد كنبع يتفجر. أود من أعماقى يا زهرة لولا. . أجل لولا، سحقا للبديهيات السخيفة القاتلة!

* * *

انضم إلينا شابان جديدان. حسنى علام ومنصور باهى. تطلعت إلى التعرف بهما بغريزة لا تنهى عن الإكثار من المعارف والصحاب، ودائما تنظر إلى الوجه الجديد بعين صياد. وحسنى علام من أسرة قديمة بطنطا، وجيه من الوجهاء، ومالك لمائة فدان، جميل الوجه قوى البنيان، كما يتمنى أى واحد منا أن يكون. وأنا قد أكره فكرة طبقته ولكنى أفتن بأى شخص منها إذا ساقتنى الظروف الممتازة إلى صحبته.

ومن السهل تخيل الحياة التى يمارسها شاب مثله رغم تغير الأحوال، فإن يكن بعد ذلك كريما كما ينبغى له فحدث عن الليالى الملاح بغير حساب.

أما منصور باهى فنوع آخر من الشبان. إذاعى بمحطة الإسكندرية وشقيق ضابط كبير من رجال الأمن. ذاك جميل ومفيد أيضا ولكنه يبدو ملتصقا بذاته فوق ما يتصور العقل. إنه تمثال دقيق جيد الصنع ذو ملامح بريئة لا يحظى بها عادة إلا طفل. أين يمكن العثور على مفتاحه أو الاهتداء إلى الدرب الضيق الوعر الموصل إلى قلبه. ما أكثر الذين يفدون من القرية سعيا وراء عمل، وما أكثر المشكلات التى يتطلب حلها الاستعانة بضابط كبير من رجال الأمن!

* * *

جذبتها من ساعدها بغتة. انتظرت حتى وضعت قدح الشاى على الترابيزة ثم جذبتها من ساعدها بغتة. اختل توازنها فتهاوت على مجلسى على المقعد الكبير فاحتويتها بذراعى وقبلت خدها ـ المتاح لى من وجهها ـ قبلة خاطفة متوترة نهمة متعجلة. اعترضت ساعدى بيدين قويتين ثم تملصت منى. انتصبت متراجعة مقطبة. نظرت نحوها فى حذر وتوقع ثم ابتسمت مستعطفا. تجملت بالصبر فيما بدا. ثم راق وجهها وصفا كالبحر فى صباح خريف دميث. توسلت إليها بإشارة أن تقترب فلم تلب ولم تذهب. وثبت إليها محموما برغبة مجنونة فضممتها إلى صدرى بلا مقاومة تذكر، ثم التقت شفتانا فى قبلة طويلة نهمة. وهمست فى أذنها ورائحة شعرها الآدمية تملأ أنفى:

ـ تعالى إلىّ ليلا..

تفرست فى وجهى قليلا ثم سألتنى:

ـ ماذا تريد؟
ـ أريدك أنت يا زهرة . .
لاحظت نظرة جادة فى عينيها وهى تفكر، فسألتها :
ـ ستأتين؟
سألتنى بمرارة :
ـ ماذا تريد منى؟
أفقت قليلا من سكرتى وقلت بحذر :
ـ نتحادث ونتبادل الحب!
ـ لكننا نفعل ذلك الآن . .
ـ فى عجلة وخوف يفسدان السرور!
ـ لا أرتاح لأفكارك!
ـ إنك تسيئين فهمى!
هزت رأسها كأنما تؤكد فهمها . وذهبت وهى تبتسم رغم ذلك .
داخلنى حزن وتعاسة . جعلت أقول متحسرا : لو كانت من أسرة . . لو كانت على علم أو مال! . وانهمر من لسانى سيل من اللعنات . .

* * *

وكانت ليلة أم كلثوم .
نازعنى المزاج إلى قضائها فى بيت على بكير لنتلقى السماع فى جو هادىء جدير به، كما دعانى رأفت أمين إلى السماع فى مسكنه، ولكنى فضلت ـ بعد تفكير ـ السهرة فى أسرة البنسيون لأوثق علاقاتى بأفرادها . رأيت صينية كبيرة مليئة بالشواء فتعجلت الشراب لأتزود بالشجاعة الضرورية للهجوم . وهيمن علينا جو أسطورى فأنشدت أسطورة عن «آل البحيرى» ومركز وكيل الحسابات، لا على سبيل الفخر

الكاذب وحده ـ ولكن تمهيدا للطريق أمام الثروة المنتظرة من مغامرة على بكير. وانقض علينا حديث السياسة كالقضاء المحتوم. أما سمعتم؟ . . ما قولكم؟ . . أتريدون رأيى صراحة؟ . أدركت بالغريزة أننى ممثل الثورة، مع احتمال مشاركة منصور فى ذلك. وانهال الثناء وتبادلنا الأنخاب. ولمحت زهرة فقلت لنفسى : إنها ممثلة الثورة الأولى، وتذكرت كيف دعت لها أمامى مرة وكيف لفحنى صدق الدعاء وحماسه البرىء. ترى أيرتاب منصور باهى فى صدقى؟ . يا صاحبى إنى بطبعى عدو أعداء الثورة ألا تفهم؟ . وإنى من الموعودين ببركاتها ألا تفهم؟

* * *

لقد أغلقت من الأبواب بقدر ما فتحت . .

ـ تذكر الملايين ثم احكم من جديد.

ـ حسن وما رأيك فى المنعمين الجشعين؟

ـ رأيى أنهم أعداء للثورة فلا يحكم بهم عليها . .

* * *

وقد عشقت مدام ماريانا، لا لأنها تحب غناءنا فحسب ولكنها لخفة روحها، ولأنها شريط مسجل يعيد ذكرياتها الخاصة بحنين يونانى عتيد. ومن خلال ذكرياتها رأيت لمحات من حياتى الخاصة، كالحب القديم، كحب الحياة الطيبة الناعمة. وهى ترجع فى الأصل إلى قوم مهاجرين، والمهاجرون قوم وطنهم هو البلد الذى يوفر لهم السعادة.

وعامر وجدى أثر قديم اكتشفه منصور باهى. فترة جذابة من تاريخنا الذى لا نكاد نعرف منه شيئا.

وعندما نوه طلبة مرزوق بمآثر الثورة لم أملك إلا أن أحيى ـ فى نفسى ـ نفاقه الممتع. واقتنعت بأن الإنسان رغم ابتكاراته وانتصاراته مازال

غارقا حتى أذنيه فى الحماقة والسخف. ولعله من المفيد أن نجمع الأعداء على فترات ليقضوا معا ليلا طويلا وهم يسكرون ويطربون ويملأون أنفسهم بأعذب الألحان.

* * *

- إذن فأنت لا تؤمن بوجود الجنة والنار؟

- الجنة هى المكان الذى يتمتع فيه الإنسان بالأمن والكرامة، أما النار فهى ما ليس كذلك..

* * *

وعندما يضحك منصور لقفشاتى يتبدى كطفل رائع، فراودنى أمل بأننى سأهتدى إلى الدرب الموصل إلى قلبه، وبأن صداقة حارة ترصدنا فى نهاية السهرة. أما حسنى علام!، ليحيا حسنى علام، قدم وحده للسهرة زجاجتين من الديوارس. تسلطن على مقعده كعمدة، يملأ الكئوس ويوزعها، ويجلجل بضحكاته، وعندما اختفى فجأة عقب منتصف الليل منيت الجلسة بخسارة فادحة.

ولم أستمتع بأم كلثوم كالعادة، ولا رددت معها بعض المقاطع، ولكن نشواتى تفاعلت كسيال كهربائى مع زهرة. عندما تجىء وعندما تذهب، وهى جالسة عند البارفان تتفرج على عربدتنا بعين داهشة باسمة. وبالنظرات المختلسة تعانقنا، وتبادلنا القبلات والأشجان

* * *

لا شك أننى رأيت هذا الرجل من قبل. كلا كان مقبلا على التريانون من ناحية شارع سعد وكنت مقبلا عليه من ناحية الميدان. سرعان ما عرفت طلبة مرزوق!. رأيته لأول مرة بملابسه الكاملة متدثرا بمعطفه والكوفية مغطيا رأسه بطربوش غامق الحمرة. صافحته بإجلال ثم دعوته إلى فنجال قهوة. أذعن لإلحاحى فجلسنا معا إلى مائدة خلف الزجاج

المغلق المطل على البحر. كان الهواء يلعب بسعف النخيل المحدق بتمثال سعد وفى السماء غيم رقيق تضىء الشمس أطرافه بلون ماسى. تبادلنا حديثا عاديا لا معنى له ولا طعم، ولكنى حرصت طيلة الوقت على احترامه ومجاملته والتودد إليه. شىء فى أعماقى قال لى إنه لا يمكن أن يكون خالى الوفاض تماما. أجل هناك طريقة أو أخرى، ولعله يود أن يستثمر ما لديه ولكن الخوف يكبله. وقلت تفريعا عن حديث عن المعيشة:

ـ من العبث أن يعتمد شاب مثلى على مرتب وظيفته.

ـ وما حيلته فى ذلك؟

خفضت صوتى كأنما أودعه سرى وأنا أقول:

ـ مشروع تجارى.. هذا ما أفكر فيه..

ـ ومن أين لك بالمال؟

ـ فقلت وأنا أدارى أفكارى بابتسامة بريئة:

ـ أبيع بضعة أفدنة ثم أبحث عن شريك..

ـ ولكن هل يمكن أن تجمع بين الوظيفة والتجارة؟

قلت ضاحكا:

ـ على المشروع أن يبقى سرا من الأسرار.

تمنى لى التوفيق ثم بسط الجريدة ليلقى عليها نظرة. كأنما قد نسى الموضوع تماما. جائز أن يكون صادقا، ومحتمل أن تكون مناورة، ولكن أدركنى إحساس باليأس منه.

وأشار إلى عنوان أحمر عن ألمانيا الشرقية وقال:

ـ لا شك أنك سمعت بعض ما يقال عن بؤس تلك المنطقة، وبخاصة إذا قورنت بالمنطقة الغربية..

ها هو يتحدث فى السياسة الداخلية بلغة السياسة الخارجية. أجبته موافقا فعاد يقول:

ـ ليس لدى روسيا ما تقدمه إلى بلد يدور فى فلكها، أما أمريكا . .

ـ ولكن روسيا قدمت لنا بالفعل مساعدات قيمة!

فقال بعجلة:

ـ الوضع مختلف، نحن لا ندور فى فلكها . .

وبدا حذرا حتى ندمت على اعتراضى. وراح يقول:

ـ الحق أنهما ـ روسيا وأمريكا ـ سيان فى رغبة التسلط على العالم، لذلك فموقف عدم الانحياز الذى اعتنقناه حكمة وأى حكمة . .

أسفت على أنه أفلت من يدى، وأنه لا سبيل إلى استرداد الأرض المفقودة قريبا. وقلت:

ـ الحق أنه لولا ثورة يوليو لاجتاحت البلد ثورة دموية لا تبقى ولا تذر!

فوافقنى بطربوشه وهو يقول:

ـ الله كبير، وقد أنقذنا بحكمته!

* * *

أين كنت؟. لم تشرفنا منذ ثلاثة أيام. كيف تذكرتنى أخيرا؟. لماذا تعود إلى الأشياء القديمة الموضوعة على الرف؟. ألم أقل لك إنك خسيس وابن حرام؟. لا توجع رأسى بالأعذار السخيفة. لا تحدثنى عن عملك الخطير بالشركة. لو كان لوزير رفيقة لما أهملها كما تهملنى. جعلت أبتسم وأصب النبيذ فى كوبين وباطنى يضيق بها لحد التقزز، ها هى تلعب معى دور الطاغية فلا بد من التخلص منها. يجب أن أتحرر منها إلى الأبد. ولكن انجابت هموم الأرض عن صدرى، انجابت جميعا بمقدم زهرة حاملة الشاى إلىّ. تعانقنا طويلا. قبلت شفتيها وخديها وجبينها وعنقها. استمتعت بشفتيها بوعى مركز وهى تطبع شفتيها على شفتى. ثم ابتعدت قيراطين عنى وهى تتنهد وتقول هامسة متشكية:

ـ يخيل إلىّ أحيانا أنهم يعرفون . .

فقلت باستهانة ممسوس بنشوة الحب :

ـ لا يهمك . .

ـ أنت لا يهمك شيء ولكن . .

ـ يهمنى شيء واحد يا زهرة . .

ورنوت إليها مليا لأترجم لها ما أعنيه بعينى ثم قلت برغبة صادقة :

ـ لنعش معا بعيدا عن هنا!

فتساءلت بارتياب :

ـ أين؟

ـ فى مسكن خاص بنا . .

لاذت بصمت متلهف على مزيد من القول، ولما لم تلق منى ما يشبع لهفتها غامت عيناها بخيبة أمل، وتساءلت :

ـ عم تتحدث؟

ـ إنك تحبيننى كما أحبك . .

قالت بصوت خافت :

ـ أنا أحبك ولكنك لا تحبنى . .

ـ زهرة!

ـ إنك تنظر إلىّ من فوق كالآخرين . .

قلت بصدق كامل :

ـ إنى أحبك يا زهرة، من كل قلبى أحبك والله شهيد .

فكرت قليلا بكدر ثم ساءلتنى :

ـ أتعتبرنى إنسانة مثلك؟

ـ وهل فى ذلك من شك؟

هزت رأسها نفيا. أدركت بطبيعة الحال ما يدور بخلدها فقلت:

ـ توجد مشاكل لا حل لها..

واصلت هز رأسها مقطبة هذه المرة عن غضب وقالت:

ـ واجهتنى مشاكل كذلك وأنا فى القرية ولكننى لم أخضع لها..

لم أتصور أنها معتزة بنفسها لذاك الحد. شعرت بأن الحب يجرفنى معه إلى الهاوية فغرزت قدمى فى الحافة راميا بثقلى إلى الوراء. تناولت يدها بين يدى، قبلت ظهرها وبطنها، وهمست فى أذنها:

ـ أحبك يا زهرة..

* * *

كلما نظرت إلى وجه حسنى علام القوى الجميل حلمت بالليالى الملاح. ولكننى علمت ذات يوم بالمشروع الذى جاء الإسكندرية من أجل دراسته وتنفيذه فتغيرت نظرتى إليه. طلبة مرزوق وهم مناقض للواقع ومن المستحسن أن أسقطه من الحساب أما حسنى علام فرجل قد عقد العزم على العمل، وعلى أن أجد لنفسى دورا فى ذلك المشروع. ليس الأمر مجرد عمل ونجاح ولكنه قد ينقذنى فى اللحظة الأخيرة من أفكار على بكير الجهنمية. المؤسف حقا أن حسنى علام مثل الزئبق لا يسهل القبض عليه. إنه يتحدث أحيانا عن المشروع ولكنه يهيم على وجهه طيلة الوقت دافعا بسيارته فى سرعة جنونية ولا يخلو المقعد جنبه من امرأة. قلت له مرة:

ـ الرجل العملى لا يضيع وقته فى اللهو.

فضحك وسألنى:

ـ كيف يضيعه إذن؟

فقلت بلهجة من يغير على مصلحته:

ـ يدرس ويفكر ثم ينفذ.

ـ جميل ما تقول، ولكننى لا يحلو لى الدرس والتفكير إلا وأنا ألهو!

ثم وهو يقهقه:

ـ نحن نعيش الأيام التى تسبق مباشرة يوم القيامة!

تركته وأنا أحدث نفسى قائلا: «ياربى.. أريد أن أفيد وأن أستفيد فما عساى أن أصنع؟».

***

تطايرت الشتائم بيننا كالأحجار أو كالشظايا. وصحت غاضبا:

ـ كل مرة!.. هو حساب الملكين؟!

وتطايرت الشتائم بيننا. وقد ذهل محمود أبو العباس الذى صحبنى إلى بيتها ليأخذ درسه الثالث فى الحساب ومسك الدفاتر. وقمت مصمما على الذهاب فمضى الرجل معى. وعند باب العمارة رجوته أن يرجع فيعلنها بأننى قررت الذهاب بغير رجعة.

ومضيت إلى ميرامار ولكننى لم أدرك أننى مطارد إلا وزهرة تفتح لى الباب. عند ذاك شعرت بيد تقبض على قفاى وصوت صفية يزعق:

ـ تريد أن تهجرنى؟.. تظننى طفلة أو لعبة؟!

تخلصت منها بجهد ولكنها كانت قد اقتحمت الشقة. قلت لها هامسا ولاهثا:

ـ اذهبى.. الناس نيام!

فصرخت بصوت غليظ:

ـ تنهبنى وتهرب!.. أكلتك وشربتك وكسوتك وتريد أن تهرب يا ابن الحرام!

لطمتها فلطمتنى. اشتبكنا فى صراع مرير. حاولت زهرة التخليص بيننا فلم تفلح فقالت لها:

ـ من فضلك . . هذا بيت محترم . .

ولما لم يجد القول صاحت بها :

ـ اذهبى وإلا استدعيت البوليس!

تراجعت خطوة وهى تلتفت نحو زهرة . دهشت لمنظرها .

رددت عينيها بينى وبينها ، ثم هتفت بها بعجرفة :

ـ أنت يا خدامة كيف . .

قبل أن تكمل عبارتها كانت يد زهرة قد صكت فاها . انقضت على زهرة فانهالت عليها لكمات الفتاة القوية حتى انهارت أو كادت . واستيقظ البنسيون ففتحت الأبواب ودبت الأقدام ، وإذا بحسنى علام يسبقهم إلينا فيأخذ صفية من يدها ويذهب بها خارجا .

ذهبت إلى حجرتى أعمى من الغضب . لحقت بى المدام وهى تتساءل عما جرى فى انزعاج . أعلنت لها أسفى ولكنها سألتنى :

ـ من هى؟

قلت مختلقا كذبة إنقاذا للموقف :

ـ كانت خطيبتى ثم فسخت خطبتها!

قالت وهى تهز رأسها :

ـ إن سلوكها يثبت أنك كنت على حق فى معاملتها ولكن . .

وسكتت لحظات ثم استأنفت قائلة :

ـ ولكن أرجو أن تسوى حسابك معها بعيدا عن هنا!

ثم قالت وهى تغادر البنسيون :

ـ إنى أعيش بفضل سمعتى الطيبة!

ولما جاءت زهرة فى موعدها كان وجهها ما يزال منطبعا بآثار الحادث ، وقد شكرتها ، واعتذرت لها عما أصابها . تبادلنا نظرات عميقة أليمة حتى اضطررت أن أقول لها :

ـ لقد هجرتها من أجلك . .

سألتنى بخشونة :

ـ من هى؟

ـ امرأة ساقطة، من الماضى، اضطررت إلى أن أكذب على المدام فأقول لها إنها كانت خطيبتى!

لثمت خدها فى امتنان وأسف . .

***

صوت الريح ينطلق فى الخارج كرعد متصل، جو الحجرة يقطر عصارة المساء رغم أن النهار لم يشارف الأصيل بعد، فتخيلت الغيوم المتراكمة فى السماء وتخيلت جبال الأمواج. ولما جاءت زهرة ـ ولم أكن رأيتها منذ لقاء أمس ـ أضاءت المصباح. كنت أعانى انتظارها طيلة الوقت فبادرتها بحرارة ورجاء :

ـ لنذهب يا زهرة!

وضعت القدح على الترابيزة وهى ترمقنى بعتاب مر فقلت :

ـ سنعيش معا إلى الأبد، إلى الأبد . .

سألتنى متهكمة :

ـ ولا توجد مشاكل فى تلك الحال؟

أجبت بصراحة مؤسفة :

ـ المشاكل التى أعنيها إنما يخلقها الزواج!

تمتمت بغضب مكتوم :

ـ يجب أن أندم على حبى لك . .

فقلت بحرارة وصدق وإخلاص :

ـ لا تقولى ذلك يا زهرة، عليك أن تفهمينى، أنا أحبك، ومن غير

حبك فلا معنى للحياة ولا طعم، ولكن الزواج سيخلق لى مشاكل من ناحية الأسرة ومن ناحية العمل، إنه يهدد مستقبلى فضلا عن أنه سيهدد حياتنا المشتركة، فما العمل؟

قالت بغضب أشد من الأول:

ـ لم أكن أعرف أننى يمكن أن أخلق جميع تلك المصائب:

ـ ليس أنت، لكنه الغباء، الحواجز الصلبة، الحقائق العفنة، ما العمل؟

ضيقت عينيها بحنق وقالت:

ـ ما العمل حقا؟ . . أن تجعل منى امرأة مثل امرأة أمس!

هتفت بيأس:

ـ زهرة . . لو كنت تحبيننى كما أحبك لفهمتنى بوضوح لا لبس فيه!

فقالت بحدة:

ـ إنى أحبك، خطأ لا حيلة لى فيه.

ـ الحب أقوى من كل شىء، من كل شىء . .

فاعترضت ساخرة:

ـ لكنه ليس أقوى من المشاكل!

تبادلنا نظرات صامتة. أنا محموم يائس وهى عنيدة غاضبة. ولولا قوة إرادتى، أو لولا خوفى لانهرت تماما. وفكرت بسرعة أشد من البرق ثم قلت:

ـ زهرة، توجد طرق وسطى، مثل الزواج الإسلامى الأصلى!

حل التساؤل فى عينيها محل الغضب فقلت وأنا لا أعرف عن الموضوع أكثر من ذكريات غامضة:

ـ نتزوج كما كان يتزوج المسلمون الأوائل . .

ـ كيف كانوا يتزوجون؟

ـ أعلن بينى وبينك أننى أقبلك زوجة على سنة الله ورسوله!

ـ بلا شهود؟

ـ أمام الله وحده!

فقالت محتجة فى استياء:

ـ جميع من حولنا يتصرفون وكأنهم لا يؤمنون بأن الله موجود!

ثم هزت رأسها وقالت بإصرار:

ـ لا..

* * *

هى عنيدة كالصلب. ليست رحلة سهلة كما حلمت. ويئست من إقناعها تماما. إنى على استعداد ـ إذا وافقت ـ أن أعاشرها إلى الأبد مضحيا بالزواج وآمالى المعقودة عليه. وفكرت أن أهجر البنسيون كخطوة أولى للنسيان ولكن حبها بقى عنيدا ـ مثلها ـ ومتشبثا بقلبى. ولم تقع بيننا جفوة. كانت تجيئنى بالشاى فى وقته ولا تصدنى إذا قبلتها أو ضممتها إلى صدرى. وقد أذهلنى أن أراها ـ فى المدخل ـ مكبة على كتاب المطالعة لتلاميذ السنة الأولى الابتدائية. ثبتت عيناى عليها غير مصدقتين. وكانت المدام جالسة تحت العذراء كما كان عامر وجدى مستسلما للفوتيل، فقالت لى المدام باسمة:

ـ انظر إلى التلميذة يا مسيو سرحان!

وألقت عليها نظرة تشجيع وهى تقول:

ـ اتفقت مع جارتنا المدرسة.. ما رأيك؟

إنه لحدث. أوشكت لحظة على الضحك ولكن سرعان ما أخذت به فقلت بحماس:

ـ برافو! . . برافو زهرة!

وكان العجوز يرمقنى بعينيه الغائمتين فداخلنى منه خوف لا أدريه فغادرت البنسيون. بلغ بى التأثر مبلغا هز أعماقى. وصوت باطنى قال لى: إننى إذا استهنت بحب الفتاة فإن الله لن يبارك لى قط. ولكننى لم أهادن فكرة الزواج المرعبة. الحب عاطفة يمكن معالجتها على نحو أو آخر. أما الزواج فهو مؤسسة، شركة كالشركة التى أعمل وكيلا لحساباتها، له لوائح ومؤهلات وإجراءات. إذا لم يرفعنى من ناحية الأسرة درجة فما جدواه؟. إذا لم تكن العروس موظفة على الأقل فكيف أفتح بيتا جديدا يستحق هذا الاسم فى زماننا المتوحش العسير؟! أما مرجع تعاستى فهو أننى أحب فتاة غير مستوفية لشروط الزواج. ولو قبلت حبى بلا قيد لضحيت فى سبيلها بالزواج الذى أحن إليه منذ البلوغ!

ـ همتك عالية يا زهرة!

قلت لها ذلك وأنا أرمقها بإعجاب، ثم قلت بأسف:

ـ ولكنك ترهقين نفسك وتبددين أجرك!

قالت بكبرياء وهى واقفة أمامى تفصل بيننا الترابيزة:

ـ لن أبقى جاهلة!

ـ وما فائدة العلم؟

ـ سأتعلم بعد ذلك مهنة فلن أبقى خادمة . .

عض الألم قلبى وعقد لسانى، أما هى فقالت بنبرة جديدة:

ـ جاء أهلى اليوم ليقنعونى بالرجوع إلى القرية!

رفعت إليها عينى مستطلعا وأنا أدارى قلقى بابتسامة فتجاهلتنى خافضة جفنيها.

ـ وماذا كان جوابك؟

ـ اتفقنا على الرجوع فى أوائل الشهر القادم!

قلت بجزع:

ـ حقا! . . ترجعين إلى العجوز؟!

ـ كلا، لقد تزوج!

ثم بصوت خافت:

ـ تقدم لى رجل غيره.

قبضت على يدها بشدة وتوسلت قائلا:

ـ لنذهب معا، غدا، اليوم إن شئت . .

ـ اتفقنا على الرجوع أول الشهر . .

ـ زهرة هل قد قلبك من حديد؟

ـ إنه حل بلا مشاكل!

ـ ولكنك تحبيننى يا زهرة!

فقالت بامتعاض:

ـ الحب شىء والزواج شىء آخر، أنت علمتنى ذلك.

عند ذاك خانتها شفتاها فوشتا بابتسامة خفيفة فهتفت:

ـ يا لك من شيطانة يا زهرة!

وغمرنى فيض من الارتياح والفرح. ودخلت الحجرة عند ذاك المدام وهى تحتسى الشاى من قدح فى يدها. جلست على حافة الفراش وهى تقص على قصة أهل زهرة وكيف رفضت الفتاة العودة. وتساءلتُ بمكر كاذب:

ـ ألم يكن من الأفضل أن ترجع إلى أهلها؟

فابتسمت المدام ابتسامة قوادة عالمة ببواطن الأمور ثم قالت:

ـ أهلها الحقيقيون هنا يا مسيو سرحان!

تجنبت النظر إلى عينيها. تجاهلت مغزى قولها تماما. ولكنى خمنت أن الفراشة تطير بالأنباء من حجرة إلى حجرة. ولعل سوء ظنها قد جاوز الحدود. ووجدتنى فى النهاية سعيدا بنصر وهمى أما فى الواقع فإن العناد الذى سد فى وجهى باب الأمل لم يلن لحظة واحدة. وساءلت نفسى متى أجد الشجاعة لأهجر البنسيون نهائيا؟!

* * *

بدا المنظر مألوفا وفاترا إلى حد ما. المدام تجلس لصق الراديو تكاد تطرح رأسها وهى تتابع أغنية أفرنجية. أما عامر وجدى فقد راح يسمِّع لزهرة بعض الكلمات. ودق الجرس فإذا بالقادمة مدرسة زهرة. معذرة.. الشقة مزدحمة بالضيوف، فإذا سمحتم أعطيت الدرس هنا. كرم منها بلا ريب. واستقبلناها بترحاب وأدب. وهى وسيمة وأنيقة وموظفة. راقبتها وهى تدرس لزهرة، وجدتنى منساقا للمقارنة بينهما بتأمل وأسى. هنا الفطرة والجمال والفقر والجهل وهناك الثقافة والأناقة والوظيفة. آه لو تحل شخصية زهرة فى بيئة الأخرى وإمكانياتها. وتطفلت المدام على الدرس لتشبع حب استطلاعها الأبدى فعرفنا الاسم والأسرة وحتى الأخ المنتدب للعمل فى السعودية. وإذا بى أسألها:

ـ أمن الممكن أن يرسل لنا بعض البضائع النادرة من هناك؟

فأجابت فى تحفظ بأنها ستسأل عن إمكان ذلك.

وغادرت البنسيون إلى كافيه دى لا بيه لمقابلة المهندس على بكير. نظر إلىّ بثقة وقال:

ـ كل خطوة ترسم بدقة، والنتائج مضمونة!

حسن، فلنثب وثبة موفقة تجعل من زيارتنا للدنيا رحلة لها معناها وقيمتها. ثم سألنى على بكير:

ـ قابلت صفية بركات فى ديليس فهل حقا..؟

قلت بامتعاض:

ـ عليها اللعنة!

ضحك وهو ينظر فى عينى باهتمام ثم عاد يسألنى:

ـ ولكن هل هجرتها حقيقة من أجل..؟

ـ لا تصدقها من فضلك، متى كانت ممن يعتمد الإنسان على صدقهن؟!

فازداد اهتماما وتفكيرا وهو يقول:

ـ إن سرنا من الأسرار التى يضن بها حتى على الزوجة والابن!

فهتفت به مؤنبا:

ـ الله يسامحك!

* * *

قلت لنفسى يا للعجب. إنها نظرة يطيب بها غرور الرجل. لم تلح فيها ابتسامة ولا رعش هدب، ولكنها ـ المدرسة ـ حولت رأسها بغتة عن زهرة وكتابها ورشقتنى بها. لم تدم أكثر من ثوان. هربتها إلىّ فى غفلة من زهرة وعامر وجدى. لم تدم أكثر من ثوان. وقد أتلقى عشرات مثلها فلا تهزنى شعرة وأعتدها نظرة عابرة، غير أنها عكست ومضة معبرة لا توصف وكأنما أبلغتنى رسالة كاملة. غيرت خط سيرى فقبعت وراء الزجاج بمقهى الميرامار أراقب السحب وأنتظر. تدبير بلا هدف، وليس وراءه عاطفة، ولكنه تطلع ـ من فراغ ويأس ـ إلى مغامرة، أية مغامرة. ولم تكن بالمنال الذى يمكن أن يفتننى ولا حتى يثيرنى ولكنها ـ فيما بدا ـ دعتنى إلى نزهة فى يوم عطلة شديد الملالة.

وإذا بها تمر أمام المقهى واضعة يديها فى جيبى معطفها الرمادى. تبعتها عن بعد حتى لحقت بها فى أثنيوس. ابتاعت بعض الحلوى ووقفت كالمترددة فاقتربت منها وحييتها. ردت التحية فدعوتها إلى قدح

شاى فقالت لى: إنها كانت تفكر فى الجلوس بعض الوقت. احتسينا الشاى وتناولنا قطعتين من الجاتوه، ثم دار حديث تعارف سطحى ولكن لا يخلو من معلومات مفيدة عن الأسرة والعمل. وسياق الحديث وحده هو الذى جعلنى أطالب بموعد قريب. وتقابلنا فى بوفيه سينما أمير، ثم شهدنا الفيلم معا، وكان علىّ أن أحدد نوع المغامرة ولونها، ولم أجدها بالقياس إلى قلبى جديرة بالمثابرة والتعب، ورغم ذلك فعندما دعتنى إلى زيارة أسرتها قبلت!. أدركت أنها تبحث عن زوج. وزنتها بعقل بارد، قدرت المرتب والدروس الخصوصية وتذكرت فى ذات الوقت يأسى المتزايد من زهرة، وفى أسرتها عثرت على إغراء جديد وهى ملكية والديها لعمارة متوسطة بكرموز. وجدتنى أفكر فى الأمر بجدية لا طمعا فى مالها ولا حبا فيها ولكن انسياقا لحنينى القديم إلى الزواج. وزهرة؟!. قد أجد شيئا من عزاء عن غدرى بها فى الزواج نفسه الذى سيربطنى إلى الأبد بامرأة لا أحبها، ولكن هل أستطيع حقا أن أقهر الحب المشبوب فى قلبى؟!

* * *

أشار إلىّ راجيا أن انتظر. كنت هممت بالانصراف بعد شراء الجريدة وكان يحاسب زبونا، فلما فرغ منه أقبل علىّ وهو يقول:

ـ أستاذ.. سأخطب زهرة!

داريت انزعاجى بابتسامة وسألته:

ـ مبارك، هل تم الاتفاق بينكما؟

أجاب منتفخا بالثقة:

ـ تقريبا!

نبض قلبى بألم أليم وأنا أسأله:

ـ ماذا تعنى بقولك «تقريبا»؟

ـ هى زبونة يومية، لم نطرق الموضوع صراحة. ولكنى خير من يفهم النسوان!

كرهته فى تلك اللحظة لحد الموت، أما هو فسألنى:

ـ ما رأيك يا أستاذ فى أخلاقها؟

ـ طيبة جدا والحق يقال.

سأخطبها من مدام ماريانا حتى أهتدى إلى أهلها.

تمنيت له التوفيق ثم ذهبت ولكنه لحق بى بعد خطوتين وهو يسأل:

ـ ماذا تعرف عن الخلاف بينها وبين أهلها؟

ـ كيف علمت به؟

ـ أنبأنى به عامر بك، العجوز..

ـ جملة ما أعرفه أنها عنيدة وأبية النفس.

فضحك وهو يقول فى مباهاة:

ـ إنى أعرف الدواء لكل داء..

* * *

كانت خطبة.. وكان رفض.

وبقدر ما أرضانى ذلك بقدر ما ضاعف من إحساسى بالمسئولية. مزقنى القلق، اجتاحنى الحب، تراجعت علية من مقدم الصورة حتى لاحت خلفية باهتة.

وقبضت على معصمى زهرة بحنان وضراعة وقلت بحرارة وتوسل:

ـ أنقذينى.. ولنذهب فى الحال!

تخلصت منى بجفاء وهى تقول:

ـ لا تعد إلى ذلك، إنى أكره سماعه!

لن نتلاقى أبدا. هى تحبنى ولكنها ترفض التسليم بلا قيد، وأنا أحبها

ولكنى أرفض القيد. ولا هذا ولا ذاك بالحب الحقيقى الذى تمحى عنده الإرادة والعقل.

وقد دعانى السيد محمد والد علية للغداء فلبيت الدعوة. ودعوت الأسرة فى نهاية الأسبوع للعشاء فى باستوريدس. انقلب الجو بعد أن استقر بنا المجلس فصفرت الريح وانهمر المطر. ومضيت أقنع نفسى طوال الوقت بأن علية فتاة ممتازة وأنها تعد بزواج موفق. وسيمة.. أنيقة جدا.. موظفة.. مثقفة.. ماذا تريد أفضل من ذلك؟. ولو لم أرق فى عينيها.. ما لى أتحفظ لهذا الحد؟ إنها تحبنى بلا ريب، الراغبة فى الزواج راغبة فى الحب أيضا. ثم ما هذا الذى يعدنا بالفراديس دون أن يفى ولو بشىء من وعده؟. واشتدت العاصفة فى الخارج حتى خيل إلىّ أنها ستقلع المدينة الجميلة من جذورها فتضاعف شعورنا بنعمة الدفء والأمان فى الداخل. وقلت لنفسى إننى اقتحمت أبواب هذه الأسرة المحترمة مدفوعا بانفعالات عفوية ولكن بلا خطة موضوعة أو نية صادقة، وبلا إمكانية مالية مناسبة، وأن علىّ أن أصارحهم بحقيقة مركزى وبمسئوليتى العائلية تاركا لهم بعد ذلك الخيار. وقد جر الحديث المتشعب إلى «الزواج» كموضوع عام فقال والد علية:

- على أيامنا كنا نتزوج مبكرين فنهنأ برؤية أولادنا وهم رجال مسئولون!

فحركت رأسى حركة تنم عن الحسرة وأنا أقول:

- تلك أيام خلت، أما هذه الأيام فهى منحوتة من العسر والصخر..

فمال نحوى قليلا ثم قال بصوت كالهمس:

- ابن الحلال ثروة فى ذاته، وعلى الأمناء من الناس أن يذللوا له العقبات..

* * *

يا له من وجه مكفهر. كان قد انتبه إلى اقترابى من معرضه وأنا على بعد خطوتين منه فسرعان ما اكفهر وجهه. رمانى بنظرات غاضبة حتى عجبت لشأنه. ثم تساءل متهكما دون أن يقدم لى الجريدة كعادته كل يوم:

ـ لم أخفيت عنى أنك عشقتها؟

بوغت بقوله، ولهجته الوقحة، وهتفت به:

ـ أنت مجنون!

فصاح بى:

ـ أنت جبان!

فقدت صوابى فلطمت وجهه بظهر كفى. وإذا به يهوى براحته الكبيرة على خدى. وتبادلنا الضرب بلا وعى ولا رحمة حتى فرق الواقفون بيننا. انفصلنا ونحن نتبادل أقذع الشتائم. وسرت وقتا على غير هدى وأنا أسائل نفسى عمن وضع تلك الفكرة الخبيثة فى رأسه الخاوى.

وقد مضى زمن طويل قبل أن أراه مرة أخرى. دخلت آنذاك لأتناول عشاء خفيفا فى مطعم بانيوتى فوجدته جالسا فى مقعد صاحب المحل وراء صندوق الماركات. هممت بالتراجع فوثب من مجلسه إلىّ ثم احتوانى بين ذراعيه وهو يقبل رأسى، وأبى إلا أن يدعونى للعشاء على حسابه!. واعتذر إلىّ عما سلف ثم اعترف لى بأن حسنى علام هو الذى افترى علىّ تلك الكذبة!

* * *

ـ عزيزتى.. أرجو ألا تعلم زهرة بما بيننا!

كنا نجلس على شاطئ المحمودية بكازينو البالما تحت الشعاع الدافئ. وكان اتصالها المنتظم بزهرة يقلق خيالى. إنها لا تدرى شيئا عن

الأسباب الحقيقية التى ساقت زهرة إلى التلمذ عليها، كما أن زهرة لا تتصور أن مدرستها قررت الاستيلاء على رجلها. وقد رمقتنى عليه بارتياب وهى تسأل:

ـ لم؟

ـ إنها ثرثارة!.. والثرثرة غير مستحبة فى اللحظة الراهنة من علاقتنا..

لم تزايل الريبة نظراتها وقالت:

ـ ولكن علاقتنا ستعرف عاجلا أو آجلا..

فقلت بصراحة فجة:

ـ يخيل إلى أحيانا أنها تنظر إلىّ نظرة خاصة..

قالت وهى تبتسم ابتسامة شاحبة فاترة:

ـ لعل لديها من الأسباب..

فقلت بجدية:

ـ جميع النزلاء يمازحونها أحيانا، وقد فعلت مثلهم، هذا كل ما هنالك..

كانت العلاقة قد تطورت من ناحيتها إلى حب. ولم يكن يهمنى أن تصدقنى بالكامل بقدر ما يهمنى أن تأخذ حذرها من زهرة!. وإذن فقد انتصر العقل على القلب ولم يبق إلا أن أعلن الخطبة. على ذلك ترددت، وجعلت أؤجل اليوم الموعود بحجة الرجوع إلى القرية ليلعب الأهل دورهم التقليدى. وكلما مر يوم توترت مشاعرى حيال زهرة وحز فى نفسى غدرى المخزى بها. وكنت أتنهد بحسرة وأقول: آه لو تلين.. لو تذعن.. فأهبها قلبى إلى الأبد..

* * *

رعد!.. زلزال؟.. مظاهرة؟.. سقوط جسم بالحجرة؟!

أخرجت رأسى من تحت الغطاء إلى ظلام دامس. أنا هو أنا.. هذا فراشى ببنسيون ميرامار.. ولكن ما هذا؟.. رباه.. إنه صوت زهرة.. إنه يطرق بابى.

هرعت إلى الخارج. رأيتها على ضوء المصباح السهرى مشتبكة مع حسنى علام فى صراع مميت. من نظرة واحدة أدركت حقيقة الموقف كله. أردت أن أنقذها بلا فضيحة ومع الإبقاء على علاقتى بحسنى. وضعت يدى على كتفه برفق هامسا:

ـ حسنى!

لكنه لم يسمعنى فشددت على كتفه وأنا أقول بنبرة أقوى:

ـ حسنى.. أجننت؟!

دفعنى بظهره بوحشية ولكنى قبضت على منكبه وقلت له بحزم:

ـ ادخل الحمام وضع إصبعك فى فمك!

وإذا به يستدير نحوى ويلطمنى على جبهتى. جننت من الغضب فانهلت عليه ضربا. ولم يقف الضرب بيننا حتى أدركتنا المدام. وقد عاملت المدام المعتدى برفق لا يستحقه. إنى أفهم العجوز جيدا. من خلال نفسى أفهمها حقا. كلانا حام حول حسنى ممنيا النفس بالاستفادة من مشروعه الخيالى. وهى مترددة تقدم رجلا وتؤخر أخرى، وأنا متحفز طيلة الوقت للوثوب. هاهو الباب يغلق فى وجهى نهائيا، أما هى فتكاد تعنف المضروب من أجل خاطر الضارب.

وعقب ذلك بأيام رأيته ـ حسنى علام ـ خارجا من الجنفواز حوالى الواحدة صباحا مصطحبا معه صفية بركات. لم أدهش إلا قليلا ثم تذكرت يوم مضى بها من البنسيون. إنها تماثله فى التهور والحلم بالمشاريع، وسيجمع بينهما الحب والأحلام. وكنت ـ تلك الليلة ـ قد سهرت فى حانة جورج مع على بكير ورأفت أمين. وسرنا فى

الكورنيش متشجعين بصفاء الجو وحرارة الخمر. ولا حديث لرأفت أمين - وبخاصة إذا سكر - إلا الوفد. وقد وضح لى أن على بكير لا يكاد يعرف الفارق بين الوفد والنادى الأهلى. من ناحية أخرى لم أكن أهتم فى أعماقى بالسياسة رغم نشاطى الموفور فيها.

أما رأفت أمين فراح يتحدث بلسان مخمور عن الوفد وأيامه. وسألته ساخرا:

- ألا تعترف بالموت؟

فقال بصوت دوى فى الطريق الخالية:

- قل فى الثورة ماتشاء، لا أنكر قوتها الشاملة، ولكن الشعب مات بموت الوفد!

عند ذاك وقع بصرى على حسنى علام وصفية بركات وهما ينحدران إلى الكورنيش كدبَّين قويين، قلت ضاحكا وأنا أشير إليهما من بعيد:

- ها هو شعب الوفد يواصل جهاده بعد منتصف الليل!

وعندما آن لنا أن نفترق همس على بكير فى أذنى:

- عما قريب سنعطى إشارة البدء فى العمل.

* * *

دخلت البنسيون والنوم يخيم على أرجائه. وتراءى لى باب منصور باهى الزجاجى وهو ينضح بالضوء فاندفعت بسحر الخمر إلى الاستئذان فالدخول، بلا باعث حقيقى. نظر إلىّ بشىء من الدهشة وهو جالس على المقعد الكبير. تتجلى فى عينيه الصغيرتين الجميلتين كآبة وتفكير. قلت وأنا أتخذ مجلسا على كرسى قريب:

- لا تؤاخذنى.. أنا سكران!

فقال دون مبالاة:

ـ هذا واضح . .

ضحكت ، ثم قلت معاتبا :

ـ الحق أنى عجزت عن جذبك إلى ، يبدو أنك شديد الانطواء !

أجاب بأدب ولكن دون تشجيع ما :

ـ لكل طبعه . .

ـ لا شك أن رأسك يرهقك !

أجاب بغموض :

ـ الرأس أصل البلاء !

فقلت ضاحكا :

ـ طوبى لنا نحن أصحاب الرءوس الفارغة !

ـ لا تبالغ فإنك مركز نشاط لا يخمد . .

ـ حقا؟

ـ نشاطك السياسى . . أفكارك الثورية . . غرامياتك !

صدمتنى العبارة الأخيرة من قوله ولكن ضاعت الصدمة فى مد الموجة الخمرية . ووضح لى أنه لا يرحب بى ـ إنه لا يرحب بأحد ـ فصافحته ثم ذهبت .

* * *

عندما تجىء زهرة إلى حجرتى بالشاى أتخلى عن أفكارى ومشروعاتى ويتفرغ قلبى للحب الحقيقى وحده . ولكن وجهها تبدى صلبا متحجرا مصفرا من الغضب . ونظرتها الثابتة الكالحة المتحفزة المخيفة ملأت قلبى بالقلق والتشاؤم . قلت بإشفاق :

ـ زهرة . . لست كعادتك !

قالت بحنق مفترس :

ـ لولا أن لله حكمته التى هى فوق العقول لكفرت !

ماج صدرى بالقلق فسألتها :

ـ هل من هم جديد يضاف إلى همومنا المستعصية؟!

قالت باقتضاب وازدراء :

ـ بعينى رأيتكما . .

عرفت من تعنى فغاص قلبى فى هاوية عميقة من صدرى وسألت بيأس :

ـ من تعنين؟

ـ الأستاذة!

ثم بضراوة وحقد :

ـ الخطافة الداعرة . .

ضحكت . يجب أن أضحك . وأن أضحك ضحكة الاستهانة التى نواجه بها عادة غضبة خاطئة فى غير محلها . ضحكت وأنا أقول :

ـ يا لك من . . صادفت أستاذتك فى طريقى فأديت لها ما . .

قاطعتنى بقسوة :

ـ كذاب . . لم تكن مصادفة . . وقد عرفت ذلك منها اليوم!

هتفت بانزعاج :

ـ لا!

ـ اعترفت الخنزيرة بمقابلتك ، ولم يدهش أحد من والديها ، ولكنهم دهشوا جميعا لتطفلى أنا!

خرست ، خرست تماما ، وقالت هى بتقزز وغضب :

ـ لم يخلق الله أمثالك من الجبناء؟

انهزمت . . تهدمت . . ومن أعماق هاوية اليأس توسلت إليها قائلا :

ـ زهرة! . . كل ذلك يقوم على غير أساس . . إن هو إلا تخبط يائس . . راجعى نفسك يا زهرة . . يجب أن نذهب معا .

لم تسمع كلمة مما قلت إذ واصلت كلامها قائلة :

ـ ماذا أفعل؟ . . لا حق لى عليك . . وغد حقير . . غر فى ألف داهية!

وبصقت فى وجهى!

غضبت . رغم موقفى المخزى غضبت . ثم صحت بها :

ـ زهرة!

فبصقت فى وجهى مرة أخرى . أعمانى الغضب فصرخت :

ـ اذهبى وإلا كسرت رأسك .

انقضت علىّ ولطمتنى على وجهى بقوة مذهلة . انتترت واقفا وقد جن جنونى . قبضت على يدها بقسوة ولكنها انتزعتها بعنف ولطمتنى للمرة الثانية . فقدت وعيى فانهلت عليها ضربا وصفعا وهى تبادلنى الضرب والصفع بقوة فاقت تصورى . وإذا بالمدام تهرول نحونا وهى ترطن بألف لسان . أبعدتها عنى فصحت فى جنون الغضب :

ـ أنا حر . . أتزوج بمن أشاء . . وسأتزوج علية!

وجاء منصور باهى فمضى بى إلى حجرته . لا أذكر أى حديث تبادلنا ولكنى أذكر تهجمه علىّ بوقاحة غريبة ، وكيف اشتبكنا فى صراع جديد . جاء موقفه مفاجأة لى وأى مفاجأة . لم يجر لى فى خاطر أنه أيضا من عشاق زهرة! . هكذا عرفت سر نفوره الغريب منى . ولحقت بنا المدام . قررت أن تجعل منى كبش الفداء ، العجوز القوادة . قالت إن البنسيون لم يعرف الهدوء منذ جئته ، وإننى قلبته إلى سوق همجية للمعارك وقلة الأدب . وبصراحة وقحة قالت لى متحدية :

ـ ابحث لك عن مسكن آخر!

لم يعد ثمة ما يدعونى للبقاء، ولكنى أصررت على الإقامة حتى عصر الغد، آخر الأسبوع الذى دفعت إيجاره مقدما، وهو إصرار يرجع أولا وأخيراً إلى العناد والكبرياء.

وغادرت البنسيون فهمت على وجهى طويلا تحت سماء ملبدة بالغيوم متعرضا لدفقات متواصلة من الهواء البارد. وجعلت أتسلى بمشاهدة معارض الحوانيت المتلألئة بهدايا السنة الجديدة وانظر بفتور إلى بابا نويل العتيد!

وذهبت إلى بدر ولموعد سابق مع المهندس على بكير. وقد سألنى:

ـ هل دبرت مسألة الاستثمارات؟

فأجبته بالإيجاب فقال لى:

ـ فجر الغد، سوف نبدأ مع فجر الغد.

* * *

قلت لنفسى وأنا ذاهب إلى الشركة فى الصباح الباكر: «مضى الفجر.. وتمت اللعبة».

كنت مضطربا، ونهما إلى الأخبار. اتصلت بالمصنع تليفونيا طالبا على بكير فقيل لى إنه فى المرور. إذن فقد نفذ التدبير بإحكام ونجاح وها هو يزاول عمله اليومى. واجتاحنى الاضطراب فغادرت الشركة قبل الميعاد متعللا بعذر ما ولدى مرورى أمام دار الإذاعة لمحت منصور باهى وفتاة حسناء يغادرانها معا. ترى من تكون؟.. خطيبة؟.. عشيقة؟.. هل تجد زهرة نفسها على الرف مرة أخرى؟. تذكرت زهرة بحزن. لم أبرأ تماما من حبها، وهو العاطفة الصادقة الوحيدة التى خفق بها قلبى الممزق بالأهواء.

ومضيت لزيارة علية محمد وأسرتها فاستقبلت استقبالا فاترا، بل

متجهما. هممت بطرح بعض الأكاذيب كالعادة ولكن والدها قال لى بغضب:

- تصور موقفنا وتلك الخادمة تناقشنا الحساب!

ولما جاء ميعاد الغداء لم أدع له. غادرت الشقة بلا أمل فى وصل ما انقطع من الأسباب. والحق أنى لم أكترث لذلك كثيرا. لم يعد يفصل بينى وبين الثراء إلا ساعات، وسوف أجد الزوجة الفاخرة المناسبة.

تناولت الغداء عند بنايوتى (محمود أبو العباس) ثم ذهبت إلى مسكن على بكير ولكنى لم أجده. مضيت إلى البنسيون والنهم إلى الأخبار يحرقنى حرقا. أعددت حقيبتى وحملتها إلى المدخل. وتلفت إلى على بكير وكم غمرنى الارتياح الساحر وصوته يرد علىّ قائلا: «آلو».

- سرحان يقدم تحياته.. كيف الحال؟

- كل شىء طيب.. لم أقابل السواق بعد!

- متى نعرف النتيجة النهائية؟

- قابلنى مساء اليوم الساعة الثامنة بكازينو البجعة!

فقلت باستجابة متلهفة:

- طيب.. الساعة الثامنة مساء.. سأنتظرك فى كازينو البجعة..

- إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

غادرت بنسيون ميرامار إلى بنسيون إيفا. تسكعت بين المقاهى أشرب كأسا هنا وكأسا هناك، مبذرا نقودى بلا حساب. بالشراب أسكت وساوس القلق وأنات الحب المحتضر. ووعدت أهلى بخير لم يحلموا به منذ وفاة أبى. وذهبت إلى كازينو البجعة قبل الموعد بقليل. التقيت عند المدخل بطلبة مرزوق فضايقنى ذلك جدا ولكنى صافحته متظاهرا بالارتياح. وقد سألنى:

ـ ماذا جاء بك إلى هنا؟

ـ موعد هام . .

ـ دعنى أرد إليك تحية من تحياتك فلنجلس معا حتى يجيء صاحبك .

جلسنا فى البهو الشتوى وهو يسألنى بصوته الأجوف من انتفاخ شدقيه :

ـ كونياك؟

كنت ثملا ولكن كانت بى رغبة فى المزيد . شربنا وتحادثنا وضحكنا . وإذا به يسألنى :

ـ ترى هل يسمح لى بالسفر إلى الكويت لزيارة كريمتى؟

ـ أعتقد ذلك ، أتريد أن تبدأ من جديد؟

ـ كلا ولكن زوج كريمتى ـ هو ابن أخى أيضا ـ قد أثرى ثراء كبيرا .

ـ لعلك تفكر فى الهجرة؟

لاحت فى عينيه نظرة حذرة ثم قال :

ـ كلا . . أريد فقط أن أرى ابنتى .

قربت رأسى منه وأنا أقول :

ـ هل أدلك على عزاء حقيقى؟

ـ ما هو؟

ـ البعض يضيقون بالثورة ، ولكن أى نظام يمكن أن يحل محلها؟ فكر قليلا أو كثيرا فلن تجده خارجا عن واحد من اثنين ، فإما الشيوعية وإما الإخوان ، فأيهما تفضل على الثورة؟!

قال بعجلة :

ـ لا هذا ولا ذاك!

فقلت وأنا أبتسم فى ثقة وانتصار :

ـ هذا هو يقينى، فليكن لك فى ذلك عزاء.

وأزف الميعاد ولم يجىء على بكير. انتظرت نصف ساعة أخرى مرت فى عذاب أليم. قمت إلى التليفون وطلبت مسكنه فلم يرد أحد. لعله فى طريقه إلى هنا ولكن ماذا أخره؟ ألا يقدر ما يفعله التأخير بى؟ ونظر طلبة مرزوق فى ساعته ثم قال: «آن لى أن أذهب» ثم صافحنى وذهب. ولم أكف عن الشراب. وأخيرا جاء الجرسون ليخبرنى بأن شخصا يطلبنى فى التليفون. وثبت واقفا ثم هرعت إلى التليفون. تناولت السماعة وقلبى يضرب بشدة:

ـ آلو.. على؟.. لم لم تجئ؟

ـ سرحان.. أصغ إلىّ.. انكشف الأمر!

تفاعلت كلماته مع وش الكحول فى أذنى وانداحت جميعا فى دوران شمل السماء والأرض:

ـ ماذا قلت؟

ـ قضى علينا!

ـ ولكن كيف؟.. قل ما عندك دفعة واحدة!

ـ ما الفائدة؟.. أراد السواق أن يفوز بالغنيمة وحده فوقع فى شر عمله.. سيعترف بكل شىء.. إن لم يكن قد اعترف بالفعل..

سألت بريق جاف:

ـ والعمل؟.. ماذا أنت صانع؟

ـ قضى علينا.. سأفعل ما يمليه علىّ الشيطان.

وأغلق السكة.

إنى أرتجف ولا تكاد تحملنى قدماى. فكرت لحظة فى الهرب ولكنى عدت ـ تحت عينى الجرسون ـ إلى المائدة. لم أجلس. شربت الكأس. أديت الحساب. اليأس يزحف بسرعة مذهلة. وخوف مثل الشيطان.

فارقت موقفى إلى البار رأسا. بطريقة غير شعورية. طلبت من البارمان زجاجة واندفعت فى الشرب بلا وعى وهو يرمقنى بقلق. أصب وأشرب ثم أصب. دون كلمة أو لفتة أو تريث. ثم رفعت رأسى إليه قائلا:

ـ موسى حلاقة من فضلك؟

تردد قليلا، ولما قرأ الإصرار فى وجهى نادى الجرسون وسأله عن موسى. رجع الجرسون بموسى مستعملة عارية فتقبلتها شاكرا ثم أودعتها جيبى. انفصلت عن البار بشىء من المشقة ثم مضيت نحو الباب الخارجى. مترنحا.. يائسا.. متعجلا. عبرت الطريق وبودى لو أركض ركضا.

كنت يائسا.. يائسا.. يائسا..

٥

عامر وجدى

تنغص على صفوى بالأحداث التى ألمت بالبنسيون. لقد ركنت إليه لأنعم بشىء من الهدوء الضرورى لشيخوختى. وبشىء من عزاء الذكريات عن الخيبة المريرة التى منيت بها فى ختام حياتى العملية. لم يجر لى فى الظن أنه سينقلب ميدانا لمعارك وحشية قدر لها أن تنتهى بجريمة قتل دامية.

ودب فى بعض نشاط فغادرت حجرتى منضما إلى ماريانا وطلبة مرزوق بمجلسنا المعهود بالمدخل. وددت أن أرى زهرة ولكن اضطراب ماريانا وتهجم طلبة منعانى من استدعائها إلى جو سيضيق حتما بأحزانها ولن يوليها الاحترام اللائق. وعلمت أن حسنى علام قد غادر البنسيون فى ميعاده المألوف تقريبا. إنه انفعل ساعة بالخبر الدامى ثم مضى إلى حال سبيله، أما منصور باهى فقد تأخر به النوم على خلاف عادته. وقالت ماريانا بتأفف:

ـ ها هو اليوم الأخير من السنة، ختمها أسوأ ختام، فماذا يخبئ لنا العام الجديد؟!

فتساءل طلبة مرزوق فى ضجر عصبى:

ـ أى متاعب ستلاحقنا هنا!

فتمتمت بصوت واهن:

ـ ما دمنا أبرياء..

فقاطعنى بحدة :

ـ أنت متحصن بشيخوختك فلن يضيرك شيء . .

وترامى إلينا صوت باب منصور وهو يفتح . ذهب إلى الحمام رجع إلى حجرته بعد نصف ساعة .

وما لبث أن ظهر من وراء البارفان، مرتديا بدلته ومعطفه، ولكنه طالعنا بوجه شديد الشحوب ونظرة معتمة وقسمات متصلبة. أخبرته المدام بأن إفطاره معد ولكنه رفضه بهزة من رأسه دون أن ينبس . أقلقنا منظره بلا شك، وكانت المدام أسرعنا فى الإفصاح عن ذاك القلق فقالت له :

ـ اجلس يا مسيو منصور . . أأنت على ما يرام؟

قال دون أن يجلس :

ـ على خير ما يرام، لقد نمت أكثر من المعتاد، هذا كل ما هنالك!

فقالت وهى تشير إلى الجريدة المطروحة على الكنبة :

ـ أما سمعت الخبر؟

لم يبد أى اهتمام بشيء فقالت :

ـ سرحان البحيرى . . وجد قتيلا فى طريق البالما . .

نظر إليها طويلا . لم يدهش، لم ينزعج، ولكنه ظل ينظر فى عينيها كأنما لم يسمع قولها، أو لم يفهمه، أو أنه يعانى مرضا أخطر مما نتصور . ودعته ماريانا إلى قراءة الخبر فى الجريدة فألقى عليه نظرة متمهلة هادئة، وأبصارنا مركزة عليه، ثم رفع رأسه وهو يقول :

ـ أجل . . وجد قتيلا . .

قلت له باشفاق :

ـ إنك متعب فلتجلس . .

فقال ببرود أو لعله ذهول :

ـ إنى بخير . .

فقالت ماريانا :

ـ نحن كما ترى فى غاية من الاضطراب . .

نقل بصره بين وجوهنا ثم سأل :

ـ لم؟!

ـ نتوقع أن يجىء البوليس فيقلق راحتنا . .

ـ لن يجىء . .

فقال طلبة مرزوق :

ـ ولكن البوليس كما تعلم . .

فقاطعه قائلا بهدوء :

ـ أنا قاتل سرحان البحيرى . . !

ومضى نحو الباب قبل أن نفقه قوله ففتحه ثم نظر إلينا قائلا :

ـ سأذهب إلى البوليس بنفسى . .

وأغلق الباب وراءه . . تبادلنا نظرات ذاهلة ، مضى وقت ونحن نترامق فى ذهول وصمت . ثم هتفت ماريانا بخوف :

ـ إنه مجنون!

فقلت :

ـ بل إنه مريض . .

تفكر طلبة مليا ثم قال :

ـ ولعله هو القاتل!

فصاحت ماريانا :

ـ ذلك الشاب المهذب الخجول!

وقلت بإشفاق :

ـ إنه مريض بلا شك .

وتساءلت ماريانا :

ـ ولم يقتله؟

فتساءل طلبة بدوره :

ـ ولمَ يعترف بأنه القاتل؟

قالت ماريانا :

ـ لن أنسى صورة وجهه ، لقد مس عقله شيء . .

فقال طلبة مؤيدا رأيه :

ـ لقد كان آخر المتشاجرين معه . .

فقلت معترضا :

ـ ما من أحد إلا وتشاجر معه . .

فأشار ناحية حجرة زهرة وقال :

ـ هناك يستقر السبب . .

فقلت محتدا :

ـ ولكنه الوحيد الذى لم يبد نحوها أى اهتمام خاص .

ـ لا يعنى ذاك أنه لم يحبها ، أو أنه لم يرغب فى الانتقام من غريمه فيها . .

ـ يا سيدى لقد تركها سرحان وذهب . .

ـ ولكنه أخذ قلبها ، كما أخذ شرفها!

ـ صه . . لا تفترى على الناس بغير يقين . .

وتساءلت ماريانا :

ـ ترى هل يذهب حقا إلى البوليس؟

وتواصل الحديث محموما حتى أرهقنا، وعند ذاك هتفت :

ـ فلنكف . . كفاية . . ولنسلم إلى المقادر . .

* * *

﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ .

سرعان ما تعبت عيناى من القراءة . غادرت الحجرة إلى المدخل والساعة تدق الرابعة مساء . وجدت ماريانا غارقة فى الكتابة فراحت تقول لى :

ـ أول ليلة رأس السنة تمر بى وكأنها ليلة مأتم .

فقال طلبة مرزوق بحزم :

ـ إياكم والعودة إلى حديث الهم والكدر .

فقالت المدام بغضب :

ـ لقد سقط النحس على البنسيون، إنى واثقة من ذلك، وعلى زهرة أن تذهب، فلتبحث عن رزقها فى مكان آخر .

أصابت غضبتها قلبى فقلت بإشفاق :

ـ إنها بريئة يا ماريانا، سيئة الحظ، وقد لجأت إليك فى محنتها .

ـ أصبحت أتشاءم منها .

فرقع طلبة بأصابعه كأنما قد تلقى فكرة جديدة سعيدة وقال :

ـ ماذا يمنعنا من الاحتفال بليلة رأس السنة؟

فقلت بدهشة :

ـ ماذا يمنعنا ! . . يا له من قول مضحك .

تجاهلنى . . وقال لماريانا :

ـ استعدى يا عزيزتى . . سنسهر معا كما اتفقنا !

تشكت المرأة قائلة :

ـ أعصابى . . أعصابى يا مسيو طلبة .

ـ لذلك أدعوك للسهر .

تغير الجو . بالقياس إليهما على الأقل . وراحا يناقشان الاقتراح بجدية . وجاء آنذاك حسنى علام من الخارج فأعلن على عزمه على الانتقال من البنسيون إلى مقام جديد . وقصت عليه المدام قصة منصور باهى الغريبة فتلقاها بدهشة كبيرة وناقشها وقتا ، ثم هز كتفيه العريضين كأنما ينفضهما عنه ، وراح يعد حقيبته ، ثم ودعنا وانصرف .

وتمتمت عقب انصرافه بحزن :

ـ عدنا وحدنا كما كنا . .

فقال طلبة بمرح :

ـ لنحمد الله على ذلك . .

انبعثت فيهما روح نشاط دفاق جرفت من قلبيهما شوائب القلق والكآبة . ازينت ماريانا كالأيام الخالية .

ارتدت فستان سهرة كحلى اللون فأضفى على بياض بشرتها نصاعة وبهاء ، ومعطفا أسود ذا طوق من الفرو الأصيل . وانتعلت حذاء مذهبا . وتحلت بقرط من الماس وعقد من اللؤلؤ . ارتدت غانية جذابة نبيلة وتوارت أمارات الكبر تحت قناع المساحيق . ترامقنا هنيهة وهى واقفة وسط المدخل وقفة استعراضية . ثم ضحكت بفرح بنت مراهقة ومضت هى تقول لطلبة :

ـ سأنتظرك عند الحلاق .

* * *

وجدت نفسى وحيدا، لا أنيس لى إلا عواء ريح عاتية . ناديت زهرة . ثلاث مرات ناديتها قبل أن تظهر من وراء البارفان . وقفت تعلوها مظاهر الحزن والهزيمة والانكسار حتى خيل إلى أنها ضؤلت واحدودبت .

أشرت إلى الكنبة فدلفت إليها فى صمت ثم استقرت تحت تمثال العذراء . شبكت ذراعيها على صدرها ورنت إلى الأرض . عصر قلبى عطف وحنان حتى امتلأت قنوات عينى بدمع غدة مضمحلة لم يعد من الميسور لها أن تروح عن صاحبها بالبكاء . قلت :

ـ لماذا تبقين وحدك كأنك بلا صديق؟ أصغى إلىّ، أنا رجل عجوز بل عجوز جدا كما ترين، وقد تعثر تيار حياتى ثلاث مرات أو أربع، تمنيت عند كل مرة أن أقتل نفسى، وكنت أهتف من قلب مكلوم «لقد انتهى كل شيء»، وها أنت تريننى على رأس عمر مديد لا يظفر به إلا الأقلون، ولم يبق من عثرات اليأس إلا ذكريات غامضة بلا طعم ولا رائحة ولا معنى كأنما كانت من تجارب شخص آخر!

استقبلت كلماتى بلا حماس وبلا فتور . قلت :

ـ لنترك أحزاننا لزمن يبرى الحديد ويفتت الحجر، ولكن عليك أن تفكرى فى مستقبلك، الحق يا زهرة أن المرأة لم تعد تريدك . .

فبادرتنى بشدة :

ـ لا يهمنى ذلك . .

ـ ماذا أعددت للمستقبل؟

قالت وهى ترنو إلى الأرض ما تزال :

ـ كالماضى تماما حتى أحقق ما أريد . .

تنسمت فى قولها عزيمة ردت إلىّ الروح فقلت :

ـ حسن أن تواصلى تعليمك وأن تتدربى على مهنة ، ولكن كيف توفرين لنفسك الأمن والرزق؟

قالت بثقة وتحد :

ـ فى كل خطوة أجد من يعرض علىّ عملا . .

قلت برقة أستعين بها على إقناعها :

ـ والقرية . . ألا تفكرين فى العودة إليها؟

ـ كلا . . إنهم يسيئون بى الظن .

فقلت فيما يشبه التوسل :

ـ ومحمود أبو العباس؟ . . له عيوبه بلا شك ولكنك قوية وستستطيعين أن تقوميه وأن تدفعيه إلى ما هو خير .

ـ ليس دونهم سوء ظن بى . .

تنهدت فى تسليم أسيف وقلت :

ـ أود أن أطمئن عليك يا زهرة ، إنى أحبك . هو حب متبادل فيما أعتقد . وباسمه سأرجوك أن تقصدينى عند الشدة . .

رمقتنى بامتنان وحب فقلت :

ـ مهما يكن من مرارة التجربة الماضية فلن تغير مرارتها من طبيعة الأشياء ، ستظل غايتك المنشودة هى العثور على ابن الحلال!

أحنت رأسها وهى تتنهد . .

ـ وستجدين حتما ابن الحلال الجدير بك . . إنه موجود الآن فى مكان ما ولعله يتحين اللحظة المناسبة!

غمغمت بكلام لم أتبينه ولكن حدثنى قلبى بأنه كلام طيب ، فقلت :

ـ ما تزال الدنيا بخير، وستكون كذلك إلى الأبد!

لبثنا جالسين نراوح بين الصمت والمناجاة. وبعد وقت غير قصير استأذنت في الانصراف ثم ذهبت إلى حجرتها.

مكثت وحدى طويلا حتى استيقظت ـ تسلل النوم إلىّ وأنا لا أدرى ـ على صوت الباب وهو يفتح.

دخلت ماريانا وطلبة مرزوق ثملين وهما يغنيان، وصاح بى الرجل:

ـ ماذا أبقاك هنا أيها العجوز؟

تثاءبت فى ذهول وأنا أتساءل:

ـ كم الساعة؟

فأجابت ماريانا بلسان مخمور:

ـ مضت ساعتان من العام الجديد.

وإذا بالرجل يشدها إلى حجرته وهو يقبلها فتطاوعه بعد تمنع لا خطورة له، ثم أغلق الباب وراءهما. جعلت أنظر إلى الباب المغلق وكأننى فى حلم!

* * *

جمعتنا مائدة الإفطار صباحا وكنا وحدنا. لم تظهر ماريانا على حين ذهبت زهرة بعد إعداد المائدة.

نظرت إليه فوجدته مريضا أو كالمريض. قلت له مداعبا:

ـ صباحية مباركة!

تجاهلنى مليا، ثم تمتم:

ـ يالك من نحس!

رفعت إليه عينى مستطلعا فضحك رغما منه وقال:

ـ كان فشلا مزريا ومضحكا معا.

تساءلت متغابيا :

ـ عم تتحدث؟

ـ إنك تعرف تماما عما أتحدث يا ثعلب!

ـ ماريانا؟

غلبه الضحك مرة أخرى ثم قال :

ـ حاولنا المستحيل ، فعلنا كل ما يمكن تخيله ، ولكن بلا فائدة ، ولما تجردت من ملابسها تبدت كمومياء من شمع مذاب فقلت لنفسي يا للتعاسة!

ـ لقد جننت!

ـ وإذا بآلام الكلى تنتابها! تصور ، وبكت ، واتهمتني بأنني أمثل بها!

* * *

تبعني إلى حجرتي بعد الإفطار . جلس على كرسي أمامي مباشرة وهو يقول :

ـ يخيل إليّ أنني سأسافر إلى الكويت قريبا ، أفتاني المرحوم بذلك .

ـ المرحوم؟

ـ سرحان البحيري .

وضحك ضحكة قصيرة ثم قال بلا مناسبة ظاهرة على الأقل :

ـ أراد أن يقنعني بالثورة بمنطق غريب .

نظرت إليه متسائلا فقال :

ـ أكد لي أنه لا بديل للثورة إلا واحد من اثنين . . الشيوعيين أو الإخوان! فظن أنه دفعني إلى ركن مسدود . .

فقلت بإيمان :

ـ ولكن ذلك هو الحق!

ضحك ساخرا ثم قال :

ـ بل يوجد بديل ثالث!

ـ ما هو؟

ـ أمريكا!

هتفت بغيظ:

ـ أمريكا تحكمنا؟

فقال بهدوء حالم:

ـ عن طريق يمينيين معقولين، لم لا؟

ضقت بأحلامه فقلت:

ـ اذهب إلى الكويت قبل أن تجن!

* * *

ها هى الصحف تحمل إلينا أنباء الجريمة. إنها تترادف غريبة ومتناقضة. لقد اعترف منصور باهى بالقتل ولكنه لم يقنع أحدا بالباعث عليه. قال إنه قتل سرحان البحيرى لأنه ـ فى نظره ـ يستحق القتل. ولماذا يستحق سرحان البحيرى القتل؟ لصفات وتصرفات هى مرذولة فى ذاتها ولكنها ليست بقاصرة عليه، فلم اختاره بالذات؟ بمحض الصدفة وكان من المحتمل أن يختار غيره. هكذا أجاب. منذا الذى يقتنع بذلك الكلام؟ أيكون الفتى مجنونا؟! هل يدعى الجنون؟

وإذا بتقرير الطبيب الشرعى يؤكد أن الوفاة نتجت عن قطع شرايين رسغ اليد اليسرى بموسى حلاقة، وليس بضرب الحذاء كما اعترف القاتل، وبذلك رجع أن تكون الوفاة نتيجة انتحار لا قتل..

وأخيرا اكتشفت العلاقة بين القتيل وبين جريمة تهريب الغزل وبذلك تؤكد الانتحار.

وتساءلنا عن العقوبة التى يستحقها منصور باهى. أجل.. ستكون

حتما عقوبة طفيفة، وسوف يستأنف حياته ولكن بأى قلب وبأى عقل؟
وقد قلت بحزن:

ـ إنه فتى رائع ولكنه يعانى داء خفيفا، عليه أن يبرأ منه.

* * *

ها هى زهرة كما رأيتها أول مرة لولا مسحة من الحزن. أنضجتها الأيام الأخيرة أكثر مما أنضجتها أعوام العمر السابقة جميعا. تناولت الفنجال من يدها وأنا أدارى انقباضى بابتسامة.

قالت بصوت طبيعى:

ـ سأذهب صباح الغد..

كنت حاولت إثناء ماريانا عن رأيها ولكنها أصرت عليه بعناد. ومن الناحية الأخرى صارحتنى زهرة بأنها لن تقبل البقاء حتى لو عدلت المدام عن رأيها.

وعادت تقول بثقة:

ـ سأكون أحسن مما كنت هنا.

فقلت بحرارة:

ـ حمدا لله.

فافتر ثغرها عن ابتسامة حنون وهى تقول:

ـ ولن أنساك ما حييت أبدا..

أشرت إليها أن تقرب وجهها منى، ثم قبلت خديها بامتنان وأنا أقول:

ـ أشكرك يا زهرة..

ثم همست فى أذنها:

ـ ثقى من أن وقتك لم يضع سدى، فإن من يعرف من لا يصلحون له فقد عرف بطريقة سحرية الصالح المنشود..

وكعادتي لدى جيشان الصدر هرعت إلى سورة الرحمن فرحت أتلو :

﴿ الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

(تمــت)

أعمال نجيب محفوظ

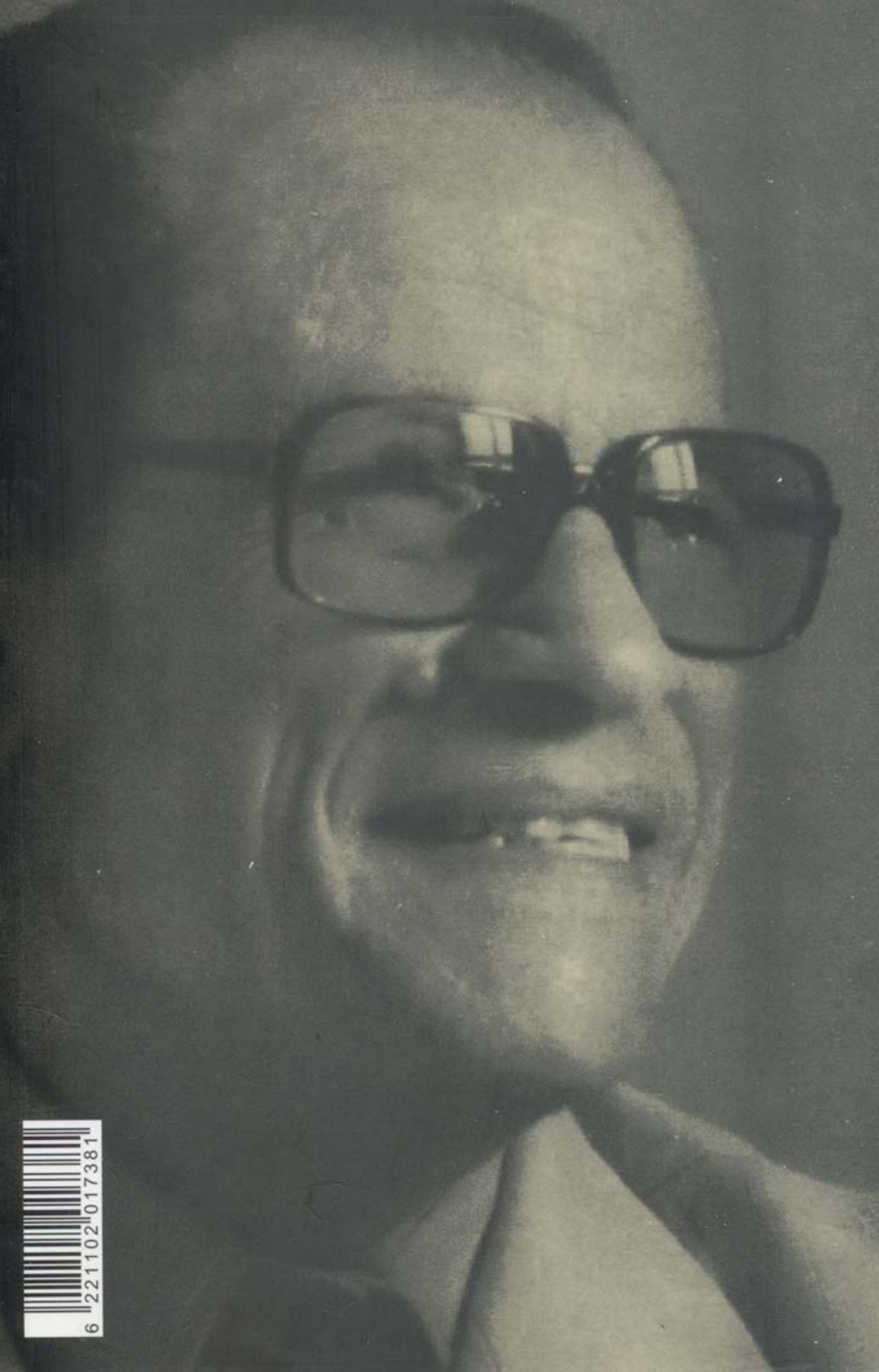
١ - مصر القديمة	ترجمة	١٩٣٢
٢ - همس الجنون	مجموعة قصصية	١٩٣٨
٣ - عبث الأقدار	رواية تاريخية	١٩٣٩
٤ - رادوبيس	رواية تاريخية	١٩٤٣
٥ - كفاح طيبة	رواية تاريخية	١٩٤٤
٦ - القاهرة الجديدة	رواية	١٩٤٥
٧ - خان الخليلي	رواية	١٩٤٦
٨ - زقاق المدق	رواية	١٩٤٧
٩ - السراب	رواية	١٩٤٨
١٠ - بداية ونهاية	رواية	١٩٤٩
١١ - بين القصرين	رواية	١٩٥٦
١٢ - قصر الشوق	رواية	١٩٥٧
١٣ - السكرية	رواية	١٩٥٧
١٤ - اللص والكلاب	رواية	١٩٦١
١٥ - السمان والخريف	رواية	١٩٦٢
١٦ - دنيا الله	مجموعة قصصية	١٩٦٢
١٧ - الطريق	رواية	١٩٦٤

١٨ ـ	بيت سيئ السمعة	مجموعة قصصية	١٩٦٥
١٩ ـ	الشحاذ	رواية	١٩٦٥
٢٠ ـ	ثرثرة فوق النيل	رواية	١٩٦٦
٢١ ـ	ميرامار	رواية	١٩٦٧
٢٢ ـ	أولاد حارتنا	رواية	١٩٦٧
٢٣ ـ	خمارة القط الأسود	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٤ ـ	تحت المظلة	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٥ ـ	حكاية بلا بداية ولا نهاية	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٦ ـ	شهر العسل	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٧ ـ	المرايا	رواية	١٩٧٢
٢٨ ـ	الحب تحت المطر	رواية	١٩٧٣
٢٩ ـ	الجريمة	مجموعة قصصية	١٩٧٣
٣٠ ـ	الكرنك	رواية	١٩٧٤
٣١ ـ	حكايات حارتنا	رواية	١٩٧٥
٣٢ ـ	قلب الليل	رواية	١٩٧٥
٣٣ ـ	حضرة المحترم	رواية	١٩٧٥
٣٤ ـ	الحرافيش	رواية	١٩٧٧
٣٥ ـ	الحب فوق هضبة الهرم	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٦ ـ	الشيطان يعظ	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٧ ـ	عصر الحب	رواية	١٩٨٠
٣٨ ـ	أفراح القبة	رواية	١٩٨١
٣٩ ـ	ليالي ألف ليلة	رواية	١٩٨٢

٤٠ ـ	رأيت فيما يرى النائم	مجموعة قصصية	١٩٨٢
٤١ ـ	الباقى من الزمن ساعة	روايـــة	١٩٨٢
٤٢ ـ	أمام العرش (حوار بين الحكام)	روايـــة	١٩٨٣
٤٣ ـ	رحلة ابن فطومة	روايـــة	١٩٨٣
٤٤ ـ	التنظيـم الســرى	مجموعة قصصية	١٩٨٤
٤٥ ـ	العائش فى الحقيقة	روايـــة	١٩٨٥
٤٦ ـ	يوم قتل الزعيم	روايـــة	١٩٨٥
٤٧ ـ	حديث الصباح والمساء	روايـــة	١٩٨٧
٤٨ ـ	صبــاح الــورد	مجموعة قصصية	١٩٨٧
٤٩ ـ	قشــــــتمر	روايـــة	١٩٨٨
٥٠ ـ	الفجر الكاذب	مجموعة قصصية	١٩٨٨
٥١ ـ	أصداء السيرة الذاتية	مجموعة قصصية	١٩٩٥
٥٢ ـ	القــرار الأخيـر	مجموعة قصصية	١٩٩٦
٥٣ ـ	صـــدى النسـيان	مجموعة قصصية	١٩٩٩
٥٤ ـ	فتــوة العطــوف	مجموعة قصصية	٢٠٠١
٥٥ ـ	أحـلام فترة النقاهة	مجموعة قصصية	٢٠٠٤

رقم الإيداع ٣٠٧٧/ ٢٠٠٦
الترقيم الدولى 3 - 1517 - 09 - 977

مطابع الشروق
القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس: ٨١٧٧٦٥(٠١)


6 221102 017381